مفاهيم التاريخ فى تراثنا الاسلامى

دكتور سليمان الخطيب

فكرة التاريخ

بين

السخاوى والكافيجى

بيت الحكمة

مصر / ص.ب (١٣٤١١/٥)

ت ٢٢٠٧١٢٤ ت: ٢٢٠٣٨٩٩

المؤلف فى سطور

الدكتور / سليمان الخطيب

تتجسد اهتماماته البحثية والدراسية فى مجالى الفلسفة والفكر الإسلامى المعاصر، وسبر غور مايعرف بالثقافة المعاصرة فى أطرها التغريبية والعلمانية المختلفة .

ولذا تركزت جهوده فيما يمكن أن نسميه "الثقافة الإسلامية" ومن خلال مشاركاته الفعالة فى العديد من المؤتمرات المحلية والدولية، على تحليل الخطاب التغريبى فى واقعنا المعاصر .

ثم هو فى خط مواز تماماً، حريص على تأصيل معالم هذا الفكر الأصولى لتأكيد العلاقة بين التاريخ وبين المناخ الدينى الذى جاء به الإسلام للعالمين جميعا ..

ولعل ارتباطه الفكرى بمالك بن نبى، والمعالجات النقدية التى تبناها لأطروحاته التاريخية والفكرية، تفسر لنا المنهج العلمى الذى يجعلنا سعداء بتقديم هذا الكتاب الذى بين يديك ليكون إضافة كريمة إلى المكتبة العربية والإسلامية .

* والدكتور سليمان الخطيب حاصل على الماچستير فى الفلسفة حول : "أسس مفهوم الحضارة فى الإسلام" من جامعة عين شمس عام ١٩٨٥ .
* وحصل على الدكتوراه فى "فلسفة الحضارة عند مالك بن نبى" من نفس الجامعة عام ١٩٨٨ .
* ويعمل الآن بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية الدراسات العربية- جامعة المنيا .

بسم الله الرحمن الرحيم

«المقدمــة»

هذا هو الكتاب الأول فى إطار سلسلة نزمع إصدارها تباعاً - إن شاء الله - تتعلق بمبحث هام فى تراثنا الفكرى والثقافى، وهو مبحث القضايا الفكرية والمسائل المنهجية فى إطار الخطاب الإسلامى حول المسألة التاريخية، أو مااصطلح عليه المؤرخون بـ"علم التاريخ" فى الحضارة الإسلامية .

ولانغالى إذا قلنا إن معظم الأقلام والبحوث والدراسات، قد وقفت بجهودها فى هذا الميدان عند العطاء المميز الذى قدمه ابن خلدون وجهوده الفذة حول فلسفة التاريخ والحضارة، ونحن نشترك مع كل من ساهم فى إبراز العطاء الخلدونى فى هذا الميدان، ونزعم - وباعتراف العقل الغربى بتحليلاته المختلفة - أن ابن خلدون هو رائد هذا المجال فى تراثنا الفكرى، كما أن مالك بن نبى هو رائد هذا المجال فى الفكر الإسلامى المعاصر .

وكما أن هناك جهوداً يجب ألا ننكرها فى الفكر الإسلامى الحديث والمعاصر، قد سبقت جهود مالك بن نبى حول مسألة التاريخ والحضارة وقضية السنن والقوانين التى تحكم حركة التاريخ، أمثال الكواكبى والأفغانى والشيخ على يوسف وخير الدين التونسى .. فإننا أيضا لانستطيع أن نغمض الطرف عن الجهود التى ساهمت فى إثـراء هذا الميـدان فـى تراثنـا الفكـرى سـواء مـن وجـد قبل ابـن خلدون أو بعده وذلك لعدة أسباب :

١ - أن الوقوف عند ماقدمه إبن خلدون فقط فى هذا الميدان، ينأى بنا عن إسهامات العقل المسلم فى نفس الميدان، وهو إغفال لحلقة ثرية وخصبة تضاف إلى موروثاتنا الفكرية والمنهجية .

٢ - إبراز الجهود الفكرية الإسلامية فى هذا الميدان يؤكد على سمة هامة من سمات الفكر الإسلامى، وهى سمة الاستمرارية والتواصل بين عطاء المفكرين والمؤرخين فى إطار المنظومة الحضارية الإسلامية التى قدمت - حتى فى أكثر عصور الحضارة الإسلامية تدهوراً، وهو عصر ابن خلدون نفسه - مايؤكد على قدرة العقل المسلم على التنظير والتحليل وإبداع المناهج وتنظيم المعارف وتصنيفها فى أطرٍ وأنساقٍ لايخفى تميزها عن العطاء الفكرى للوافد الثقافى فى أزمنة الاحتكاك الحضارى .

٣ - وأخيراً فإن هذا المنهج، يضعنا فى قلب الحقيقة التى نود إبرازها فى هذا الميدان، وهى خصوصية الفكر التاريخى

الإسلامى الذى تحددت منطلقاته وغاياته فى إطار حضارى وفق مبادىء وأخلاقيات العقيدة الإسلامية التى لانستطيع أن نقرأ أو نحلل - كل موروثاتنا الفكرية - إلا فى إطارها ومن خلال أسسها قرآناً وسنة .

ووفق هذا المنهج نبدأ كتابنا الأول حول تأصيل الفكر التاريخى فى تراثنا الإسلامى، من خلال عَلمَين ساهما بشكل مباشر فى الدفاع عن علمية التاريخ، مع التأكيد على ارتباطه بالمناخ الدينى والفكرى الذى جاء به الإسلام وماأحدثه من إسهامات معرفية ضخمة فى تاريخ الحضارات وهما - الكافيجى والسخاوى- من خلال المختصر فى علم التاريخ للأول، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للثانى .

ونأمل أن يساهم هذا البحث المتواضع فى إبراز الدور الإسلامى حول تأسيس وصياغة الفكر التاريخى فى تراثنا الحضارى.

والحمد لله من قبل ومن بعد

سليمان الخطيب

الفصل الأول

مكانة علم التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

« مكانة علم التاريخ »

يدرج موضوع هذا البحث في إطار الدراسات المتعلقة بتقصي المناهج الخاصة بالفكر التاريخي في التراث الفكري الإسلامي، والذي ساهم فيه العقل المسلم بنصيب وافر من الإضافة والعطاء في ميدان علم التاريخ، وبالمناهج التي يستخدمها، بالإضافة إلى الجهود المختلفة ببحث الواقعة التاريخية تدويناً وتفسيراً .

ومن خلال المنهج الذي يحدد به المؤرخ رؤيته للتاريخ معللاً أحداثه، وباحثاً عن العوامل والأسباب التي تساهم في صياغة هذه الأحداث - هذا المنهج - وإن كان موضوعه المباشر يتعلق بأحداث الماضي، فإنه يساهم في نفس الوقت في صياغة الحاضر وحركيته، انطلاقاً إلى مستقبل يؤكد الاستمرارية الحضارية لهذا المجتمع الذي يشكل تاريخه: الأرضيه الموضوعية لمنهج المؤرخ .

ولاشك أن المستقبل الحضارى للمجتمع يرتبط بالماضى عن طريق الحاضر، ارتباطاً معنوياً فى الوعى بالذات الحضارية، لأن الحاضر فى حقيقته محصلة للماضى التاريخى للأمة، وموقفنا من الماضى التاريخى - بكل تفاعلاته - وتصورنا له - يشكل عاملاً جوهرياً فى تفاعلنا مع الحاضر والانطلاق نحو المستقبل .

وكان لابد أن يتجه النشاط الإنسانى إلى أقرب المعارف وألزمها للإنسان، وهو حقل التاريخ الحضارى للأمه، وماتقدمه الدراسات الحضارية من كافة الأنشطة إبداعاً وسقوطاً، ووفق منطق كل عصر، حيث يتقدم الفكر لتفسير حركة التاريخ والقيام بمحاولات التنبؤ بالمستقبل وحركته عن طريق الدراسة الواعية للماضى التاريخى وفق منهجية واعية .

فدراسة الماضى الحضارى، سواء لتسجيله، أم لفلسفة حركته ووجهته، لايمكن أن تتم إلا من خلال رؤية فلسفية نابعة من الموقف الإنسانى الذى يحدد هوية الباحث ويوجه تطلعاته نحو إستيعاب الحدث الحضارى، ومن ثم يستطيع الوعى الحضارى المساهمة بقدر يتسم بالفاعلية فى حركة الإنسان وتوجهه نحو المستقبل .

ويصبح من الأهمية بمكان، فى مجال الوعى بالذات التاريخية، أن تثبيت وقائع التاريخ كما هى، ليس هو الغرض الفعال

فى الفكر التاريخى، ولكن يتحتم الوعى والتسلح بالموضوعية والمنهجية فى التعامل مع وقائع التاريخ - بمعنى آخر - إن المعرفة الواعية بالماضى، لاتكمن فى معرفة أحداثه فقط، وإنما تكمن فى توعية الإنسان من خلال تحليل هذه الأحداث، ومحاولة توظيفها فى خدمة المشكلات الفكرية والمنهجية فى إطار الحقبة الحاضرة والمعاصرة، وهو مانطلق عليه" التوظيف الفعال للتراث الفكرى" وذلك عن طريق الكشف عن ميادين جديدة فى تراثنا الفلسفى والفكرى، ويعد ميدان الفكر التاريخى - وبخاصة فى مجال المناهج المتعلقة بالتاريخ - من أهم المباحث التي ينبغى أن نوليها قدراً من جهودنا البحثية والفكرية فى ميدان الفكر الإسلامى .

والاهتمام بالفكر التاريخى فى الموروث الثقافى الإسلامى، يعبر عن رؤية الذات لنفسها خلال مسارها وحركتها التاريخية، ويصبح استحضار هذا الجهد التراثى فى هذا الميدان تعبيراً عن أصالة الذات الحضارية الإسلامية وتأكيداً على استمراريتها عبر الأزمنة .

ولقد ظلت دراسة تراثنا التاريخى تقوم عند كثير من مؤرخينا المعاصرين، على الاكتفاء بجمع الوثائق وتدوينها، والتنقيب عن المادة التاريخية والبحث عن الأسانيد التى تثبت صحة الوقائع والأحداث - كل ذلك - دون العناية بتفسير وتحليل هذه الوقائع

وتلك الوثائق، تفسيراً واعياً يكشف عن خصوصية الذاتية الحضارية الإسلامية والوعى بمقوماتها وأسسها التي ميزتها عبر القرون بالمقارنة بالكيانات الحضارية الأخرى.

ولذلك نقول إن قضية الفكر التاريخى فى الخطاب الفكرى الإسلامى، ليست قضية توثيق تكديسى، دون الاهتمام بقضية التركيب الثقافى للتاريخ، وهذا التركيب لايتم إلا عن طريق إثارة المشكلات المنهجية المتعلقة باهتمامنا بهذا الفكر، وإيجاد الحلول المناسبة لها فى ضوء الواقع المعاصر دون إغفال لمقوماتنا وأصولنا العقدية والحضارية .

وكل تأمل تاريخى يجب أن يبدأ فى الحقيقة من اهتمامنا بالواقع الحضارى، لأن واقعة التاريخ الماضى لاتنفصل عن الواقع الحى فى حس مؤرخ الحضارات، ومثل هذا الاهتمام هو الذى يجعل الحوار بين الماضى والحاضر ممكناً فى عمله، وهو وحده الذى يضفى عليه معنى خاصاً لدى معاصريه.[1]

---

(١) د . عفت الشرقاوي : فلسفة الحضارة الإسلامية : ص٤٣٤ : بيروت : دار النهضة العربية : جـ١ : ١٩٨١ .

والتاريخ ليس هو الحوادث، إنما هو تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحى فى الزمان والمكان.(١)

ووفق هذا المنهج التحليلى للتاريخ، ووفق الرؤية النقدية لأحداثه، ومحاولة إبداع المناهج المتعلقة بهذه القضايا "يستحيل التاريخ إلى عملية استبطان وتجاوب فى ضمائر الأشياء والأشخاص والأزمان والأحداث، ويتصل بناموس الكون ومدارج البشرية ويصبح كائناً حياً ومادة حياة .(٢)

بدايات الاهتمام بالتاريخ فى تراثنا الفكرى :

لقد تبلور علم التاريخ عند المسلمين، متدرجاً من العناية بالرواية والترجيح بين الأسانيد إلى النظر فى أثر البيئة والعوامل الاجتماعية والثقافية والسياسية، وتأثيرها فى الأحداث، وهو ماعرف عند المؤرخين بمنهج الدراية، وصولاً إلى الصياغة الفكرية والمنهجية لقضايا التاريخ من الزاوية الحضارية، حيث تبلور ذلك بشكل واضح عند "ابن خلدون" الذى بدأ عهداً جديداً فى تاريخ

---

(١) سيد قطب : فى التاريخ – فكرة ومنهاج : ص٣٧ : بيروت : دار الشروق : ط٣ : ١٩٧٩ – ١٣٩٩ هـ .

(٢) المرجع السابق : ص٥١ .

الفكر الإنسانى - عامة - عندما تناول قضايا التاريخ فى إطار تحليل الظاهرة الحضارية، ومسائل العمران البشرى بحثاً عن العوامل والأسباب التى تحدد مسيرة الكيان الحضارى إيناعاً وتقدماً، وتدهوراً وسقوطاً .

فكيف بدأ الاهتمام بالتاريخ فى مسيرة الخطاب الفكرى الإسلامى ؟ .

الوعى بالتاريخ قبل الإسلام :

هل كان للعرب - قبل الإسلام - وعى بذاتهم التاريخية ؟ وكيف نظروا إلى أحداث التاريخ البعيد والقريب ؟ .

وأيسر مانلجأ إليه إجابة عن هذا التساؤل أن نرجع إلى مايمكن أن يكون مادة تاريخية من تراثهم فلعله ذو دلالة علي وعيهم بالتاريخ، على أن الروايات المنقولة إلينا فى وصف بعض الأحداث، وهو مايطلق عليه أيام العرب، لاتدل على تصور كونى واضح للتاريخ يربط بين ماضى المجتمع العربى وحاضره على نحو حضارى شامل، ذلك أن قصص الأيام لم تكن تمثل فى مضمونها الحقيقى مادة تاريخية يعتد بها، كذلك لم يكن الهدف من تناقلها، تكوين مادة تاريخية محدودة، وإنما كانت ترجع فى أغلب الظن إلى الرواية الأدبية، أكثر مما ترجع إلى الرواية التاريخية، فقد كان إيناس السامعين ومتعتهم العاطفية وتفاخرهم القبلى غاية أساسية من غايات قصص الأيام .

وجمع مؤرخو القرن الثانى الهجرى الروايات المتعلقة بقصص الأيام وصنفوها وحملوها فى بعض الأحيان دلالات تاريخية أكثر مما ينبغى، بل تدخلت التيارات السياسية والاجتماعية فى حبكتها فى كثير من الأحيان، مما دعا كثيراً من الباحثين إلى الشك فى قيمتها العلمية لأنها "مرتبكة من ناحية التوقيت، وهى على العموم لاتخلو من عصبية، وتمثل جانباً واحداً، ثم إنها ينقصها التآلف والسبك، وليست فيها فكرة تاريخية، ومع ذلك فإنها تحوى بعض الحقائق التاريخية، وأهميتها الأساسية هى فى أنها استمرت فى صدر الإسلام، وقد أثر أسلوبها على بداية علم التاريخ وخاصة فى العراق"[1] .

ويؤكد "روزنتال" على ذلك فى قوله" لاتوجد إشارة إلى أن الشعور التاريخى قد تقدم قبل الإسلام إلى الحد الذى يضفى على هذه القصص شيئاً من التعاقب التاريخى، وبذلك لم يكن بالإمكان أن تتطور قصص الأيام، أو أن يكون لها دافع يوجهها نحو التطور لتصبح من الأدب التاريخى، هذا بالرغم من أن فنونها وأشكالها لعبت فيما بعد دوراً هاماً فى علم التاريخ الإسلامى". [2]

---

(١) د. عبد العزيز الدورى : بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب : بيروت : المطبعة الكاثوليكية : ١٩٧٠م : ص١٧ .

(٢) فرانزروزنتال : علم التاريخ عند المسلمين : ترجمة : د . صالح أحمد العلى : بغداد: مكتبة المثنى : ١٩٦٣ م : ص٣٣ .

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لقصص الأيام - كشكل من أشكال التعبير التاريخى للعرب قبل الإسلام - فإن نفس الحكم ينسحب على شكل آخر من مصادر الوعى التاريخى عندهم، وهو علم "الأنساب" بالرغم من قول النويرى عنها" والأنساب مما افتخرت به العرب على العجم لأنها احترزت على معرفة نسبها، وتمسكت بمتين حبها، وعرفت جماهير قومها وشعوبها، وأفصح عن قبائلها لسان شاعرها وخطيبها، واتحدت برهطها وفصائلها وعشائرها، ومالت إلى أفخاذها وبطونها وعمائرها، ونفت الدعى فيها، ونطقت بملء فيها". [1]

والحقيقة أن شجرات النسب لم تكن تتضمن إشارات إلى أحداث تاريخية يفترض أنها ترتبط ببعض الأعلام الواردة فى سلسلة النسب إلا فى القليل النادر، ذلك أن مثل هذه المجالات التاريخية لم تكن هدفاً للأنساب، ولم تكن مما يشغل به الناسبون أنفسهم، إلا على سبيل التفاخر بما فعله الآباء. [2]

وفيما يتعلق بالنقوش - كمصدر من مصادر الكتابة التاريخية - التى ظهرت فى جنوب الجزيرة العربية، نجد أن من المحقق أن هناك نقوشاً كثيراً كتبها كتاب محترفون أو غير محترفين من الرعاة

---

(١) النويرى : نهاية الأرب : ط دار الكتب : ١٩٢٨ : جـ٢ : ص٢٦١ .

(٢) فلسفة الحضارة الإسلامية : مرجع سابق : ص٧٨ .

ورجال القوافل، يذكرون فيها أسماء آلهتهم متضرعين إليها أن تحميهم، وقد يذكرون مايقدمون إليها من قرابين، وقد يكتبونها على قبورهم مسجلين أسماءهم، وأسماء عشائرهم، وماقام به الميت من أعمال، وقد يودعونها بعض قوانينهم وشرائعهم .[1]

فكان طابع هذه النقوش دينياً، لايصور وعياً واضحاً بفكرة التاريخ، على أن ذلك لايعنى أنه لم يكن لهذه الأمة تاريخ، فقد كان لها تاريخ مشهوه - كما نعرف عن عرب الجزيرة - ولكننا هنا نفرق بين التاريخ ووثائقه من جهة، وبين الحس التاريخى الذى هو وعى الذات الحضارية بوجودها فى إطارها الزمان من جهة أخرى.[2]

وبهذا لايوجد أى دليل على أن علم التاريخ كان موجوداً عند عرب الجنوب.[3] أما فيما يتعلق بدور اليهود والنصارى من سكان الجزيرة العربية فى التبشير بمفهوم معين للتاريخ بين جيرانهم من الوثنيين، فلم يتميز هؤلاء الكتابيون عن جيرانهم الوثنيين بأية ناحية، فيما يتعلق بأنماط التعبير عن الشعور التاريخى[4] بل هم فى

---

(١) د. شوقى ضيف : العصر الجاهلى : دار المعارف : ١٩٦٠ : ص٣٢ .

(٢) فلسفة الحضارة الإسلامية : ص٨١ .

(٣) علم التاريخ عند المسلمين : ص٣٧ .

(٤) نفسه : ص٣٨ .

جملتهم كانوا مثل سواهم عن العرب على حظ ضئيل من الوعى الفكرى.[1]

ولم يكن العرب يشعرون فى تاريخهم الجاهلى الطويل أنهم أمة واحدة، بل كانوا يشعرون أنهم عصبيات، وكان المدرك الجاهلى للحياة الاجتماعية، أن كل قبيلة تشكل وحدة قائمة بنفسها، حيث تعد نفسها وحدة مستقلة فى النسب، ولم يكن الجاهلى يقدر الشعور الجامع للأمة ولاللعشيرة.[2]

فالنظام العقلى - كشكل إجتماعى بدائى - صرف العربى عن أن يفكر فى محيط إجتماعى أوسع فلم يفكر فى تغيير مجرى حياته الإجتماعى أو الفكرى، فانحصر فكره داخل قبيلته، ولم يحد عن مألوفها، إلا بقدر مايخدم حريته الشخصية، فهو كعضو فى قبيلته مخلص مطيع لتقاليدها، لذلك كان العربى غير ميال إلى التغيير الاجتماعى، لعدم وعيه بواقعه التاريخى، لأن فى الحفاظ على وضعه - داخل قبيلته - نوعاً من الفكر الذاتى المنغلق على نفسه، فلذلك اندفع نحو الخرافات ليحفظ نطاقه القبلى.[3]

---

(١) ينظر فى ذلك بالتفصيل : جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام : المجمع العلمى العراقى - بغداد : المجلد الخامس .

(٢) د . عمر فروخ : تاريخ الجاهلية : بيروت : دار العلم للملايين : ١٩٦٤ م : ص٧٨.

(٣) د . محمد إبراهيم الفيومى : فى الفكر الدينى الجاهلى : دار المعارف : القاهرة : ط٣ : ١٩٨٢ : ص٢٦٣ .

وإذا كان البعض يرى فى تحليل العقلية العربية قبل الإسلام ودورها السياسى والحضارى قائلاً "ومهما يكن من أمر العرب عند ظهور الدين المحمدى، فإنهم لم يكونوا من سذاجة الجماعات الإنسانية الأولى من الناحية الفكرية، يدل على ذلك ماعرف من أديانهم، وماروى عن آثارهم الأدبية"(١) .

فلقد تميز التراث التاريخى عند عرب قبل الإسلام بالبدائية والسذاجة، التى كانت إفرازاً للمرحلة الحضارية التى عاشوها، بالإضافة إلى افتقار هذا التراث إلى التحديد الزمنى للأحداث، وإن نظرة على هذا التراث لتكشف عن قصور وعيهم بفكرة التاريخ (وهو قصور لانلومهم عليه بأى حال من الأحوال) فلم يكن التاريخ بالنسبة لهم بحثاً عن الحقيقة، كما لم يروا فى العملية التاريخية نتاجاً لتفاعل الإنسان مع بيئته فى إطار زمنى محدد، ولكن كانوا يهدفون إلى أن تكون هذه الأنماط التاريخية أو شبه التاريخية، سنداً لهم فى مواجهة الضرورات والحاجات التى أفرزتها بيئتهم الطبيعية وظروفهم التاريخية.(٢)

---

(١) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ط٣ : القاهرة : مكتبة النهضة المصرية : ١٩٦٦ م : ص٢٠٢ .

(٢) د . قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ : ص٧٩ - ٨٠ : القاهرة : دار المعارف : ط٢ : بدون .

إننا هنا لانقف عند تحليل حقيقة العقل العربى قبل الإسلام، ودوره فى الحركة الحضارية، ولكننا بصدد الوقوف عند مشكلة وعى العربى بأحداث التاريخ ووقائعه لنؤكد على افتقاده لرؤية كونية واضحة للتاريخ الذى يربط بين ماضى الحياة وحاضرها على أساس روحى عميق أو فلسفى شامل، وذلك. لافتقاد وعيه بذاته الحضارية المستقلة، وتشتت هذا الوعى بين التصورات القبلية للماضى، ومايرتبط بها من قصص الأيام والأنساب، والتى لانستطيع اعتمادها كمصادر واضحة الصحة والدلالة على أحداث التاريخ العربى ووقائعه قبل الإسلام كما بينا .

لقد كان التجمع القبلى، أو ذوبان الفرد فى القبيلة، صورة ساذجة من صور التجمع الإنسانى تستبعد فيها الفاعلية الإجتماعية والسياسية، وبذلك يتعثر خلالها البناء الحضارى وفق آلية الإنحسار البيئ، والإنغلاق الفكرى، وماينتج عن ذلك من فقدان للوعى بالذات التاريخية وبالمقومات والأسس التى تساهم فى دفع الحركة الاجتماعية والحضارية إلى الإيناع والإنجاز .

الوعى بالتاريخ فى ظل الإسلام :

إن المطلق الذاتى الداخلى الذى ولدته البيئة الطبيعية فى نفسية العربى، والتى لم يتسع مجالها الإجتماعى لأكثر من القبيلة كحدود اجتماعية نهائية، فظلت القبيلة مرادفاً للعصبية، إليها يرتد لحماية مطلقه الذاتى وبها يحتمى. فكانت القبيلة هى الإطار الذى يعبر فيه عن بطولته وقدراته، هى دائرة الإنتماء والطموح .. "وبالتداخل بين نزعة التركز على الذات على نحو فردى موغل فى الإنفرادية والأنا والفخر الذاتى، وبين القبيلة كأكبر حدود اجتماعية ينتهى لديها الإحساس بهذه الذات الفردية، فقد كانت أتفه الأسباب تثير الاقتتال، بين ذوات متماثلة فى تركيبها، والتى تحتمل التنافر بحكم التماثل، إذ لم يعرف العربى نظاماً اجتماعياً متراكباً يحد من كبريائه، بل عرف أشكالاً اجتماعية متماثلة يتمحور كل شكل منها حول مطلقه الذاتى"(١).

وفى ظل سيطرة روح الصراع والتنابذ، افتقد العربى النظر الموضوعى للأحداث والوقائع، وكذلك الوعى التاريخى بمسيرتها ومنحنياتها .

---

(١) محمد أبو القاسم حج حمد : العالمية الإسلامية الثانية بيروت : دار المسيرة : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م : ص١٥٨ ط١ .

وفى تقديرنا أن الوعى التاريخى من المقومات الأساسية للوجود الحضارى والوجود الإنسانى على السواء، والوعى التاريخى يعنى الحضور الحيوى الدائم للإرادة الإنسانية فى نظرتها للأحداث، وهو التفاعل الإيجابى مع هذه الأحداث، وهو المقدرة العقلية الحية التى تستطيع أن تدرك العلل والأسباب وتستبين النتائج فى غير نكوص أو تردد.(١)

ومن نقائص الوعى التى يجدر بالإنسان أن يجتنبها، ألا تستلب توجهاته صوب الفعل والإنجاز الحضارى لصالح المتوارث من التقاليد والأفكار التى أثبتت التجارب التاريخية عدم فعاليتها ونكوصها عن الأداء الحضارى الخلاق نحو الإنطلاق، وهو ماحدث للعربى قبل الإسلام، حين اخضع ذاته للمتوارث من الأفكار والقيم والتقاليد، ومن هنا كان موقف الإسلام من هذه القضية حاسماً منذ بدايات الخطاب الإسلامى، واحتكاك العقيدة الإسلامية بالعديد من التقاليد والقيم المتوارثة التى كانت تسيطر على توجهات العقلية العربية، والتى لعبت دوراً رئيسياً فى صياغة حياة المجتمع العربى قبل دخوله فى طور الحضارة الإسلامية .

---

(١) محمد عبد الواحد حجازى : القرآن وفكرة التاريخ: القاهرة : دار آتوان : ١٩٧٩ م: ص٧ - ٨ .

ولم يكن ترك الإنسان العربى، لتقاليده المتوارثة، أمراً سهلاً ضمن التحليل الموضوعى لحركة التاريخ العربى والإسلامى، يقول تعالى "وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه أباءنا" لقمان / ٢١ .

فهذا هو سندهم الوحيد، التقليد الجامد المتحجر، الذى لايقوم على علم، ولايعتمد على تفكير ولايستند إلى تعقل، التقليد الذى جاء الدين الجديد ليحررهم منه، وأن يطلق عقولهم لتتدبر، ويشيع فيها اليقظة والحركة، فيأبوا هم الإنطلاق من أسر الماضى المحرف، ويتمسكوا بالأغلال والقيود، ذلك أن الإسلام حرية فى الضمير، وحركة فى الشعور، ومنهج جديد للحياة، طليق من أسر التقليد والجمود، ومع ذلك يأباه ذلك الفريق من الناس : "ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد" الحج /٣" .[١]

وشاءت حكمة الله تعالى أن تكون مشكلة الخيار العقدى - فى ظل هذا التشتت الوثنى - هى المشكلة التى يتصدى لها الخطاب القرآنى منذ اليوم الأول للرسالة وأن يبدأ الرسول ﷺ أولى خطواته فى تأسيس الدولة الإسلامية، فى الدعوة إلى التوحيد وشهادة أن لاإله إلا اللـه، بحيـث تتوحـد إنطـلاقه الإنسان العربى،

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن : جـ٥ ص٢٧٩٣ : بيروت : دار الشروق : ط١١ : ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م .

وتتحدد غايته فى إطار هذا البعد العقدى الذى تغيرت به، ومن خلاله - حركة التاريخ العربى ، بل والإنسانى فى تاريخ الحضارات، ولم يكن هذا النهج فى ظاهر الأمر وفى نظرة العقل البشري، هو أيسر السبل إلى قلوب العرب وتطلعاتهم، فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى "إلــه" ومعنى "لاإله إلا الله" ، ولكن الإقرار بهذه الحقيقة والعمل بمقتضياتها فى الواقع، معناه نزع سلطانهم، ولكن الله تعالى، قد جذب الذات العربية عبر الإنشاء القرآنى إلى هذا المحتوى الجديد المكنون فى القرآن، حيث دفع بالإنسان عبر دروس تطبيقية عديدة فى معارك التحول نحو الإسلام ليدرك أعماق الكلمة القرآنية، وحكمة الله فى التدبير الكونى ليخرج العربى لامن صحراء الجزيرة إلى سهول العالم، ولكن ليخرج أولاً من فرديته إلى كونيته، وأن يخرج من سطوح الفكر إلى أعماقها، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن ظواهر الموجودات والحركة إلى حقائقها، وأن يأتى هذا التحول خلاقاً للطرق المباشرة التى أجراها الله فى علاقاته مع الشعوب السابقة.[1]

وجاء المنهج القرآني منذ البداية مؤكداً على ضرورة الوحدة والتآلف بين أفراد المجتمع العربى،ولم يكن ليحدث هذا إلا من خلال قوى الدفع القرآنية، بعد أن فقدت الألفة بين الأقوام، فجاء الخطـاب

---

(١) العالمية الإسلامية الثانية : مرجع سابق : ص١٦٦ .

القرآنى "..وألف بين قلوبهم لو انفقت ما فى الأرض جميعاً ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم"الأنفال /٦٣ كذلك يقول تعالى "واعتصموابحبل الله جميعاً ولاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون" . آل عمران / ١٠٣ .

لقد تحدد الموقف الإسلامى من التاريخ، من خلال التوجيهات التى قدمها القرآن الكريم فى موقفه من الإنسان ودوره فى الحياة بكل تفاعلاتها .

فبما أن الإنسان هو الشرط الأساسى لكل حضارة، وأن الحضارة تؤكد دائماً الشرط الإنسانى"[1] فالإنسان إذن هو محور الفاعلية فى حركة الحضارة، فعليه مدار الإختيار - وعطائه فى إطار حضارته - وبالتالى فى الحضارة الإنسانية ككل - محدداً بمدى الصقل الفكرى، والتكوين الثقافى المتأصلين فى بيئته الحضارية .. فقد أراد الله للإنسان أن يكون خليفته فى الأرض : "وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة" البقرة / ٣٠.. أى أن الإنسان مفوض عن الخالق من أجل غاية محددة وغرض

(١) مالك بن نبى : وجهية العالم الإسلامى : ترجمة : د . عبد الصبور شاهين : دار الفكر : دمشق : ١٩٨١ : ص١٩٨ .

معين، وهو "إعمار العالم" وفق مقتضيات الاستخلاف : "قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها" هود / ٦١ ومعنى : "واستعمركم فيها" أى جعلكم عماراً تعمرونها وتستغلونها"(١) .

فالإنسان - فى إطار المذهبية الإسلامية - قوة إيجابية فاعلة فى الأرض، وأنه ليس عاملاً سلبياً فى نظامها، فهو مخلوق ابتداء ليستخلف فيها، وهو مستخلف فيها ليحقق منهج الله فى صورة تاريخية تمتد في الزمان والمكان، لينشىء ويعمر ويطور وينمى، وهو معان على هذه الخلافة "قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدىً فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون" . البقرة / ٣٨.

وشعور المسلم بأنه مكلف بالعمل ومعان عليه ينفى عنه الشعور بالسلبية فى ممارسة الفعل التاريخى، هذا الشعور يهيئه للحركة والتأثير والفاعلية فى إطار التعرف على ذاته - كسند محسوس يتم من خلاله تحقيق الفعل التاريخى - ضمن أخلاقية التغيير الذاتى التى تعد بمثابة الجهد الدائم للشخصية المسلمة صوب تحقيق الإنجاز والعمران الحضارى، يقول تعالى "إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم" الرعد / ١١ .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ٢ : ص٤٥٠ طبعة : عيسى الحلبى : دار إحياء الكتب العربية .

كما تشير مسألة الاستخلاف فى الوقت نفسه - سلباً وإيجاباً - إلى أن المحور الأساسى لوجود الإنسان - فرداً وجماعة - على الأرض هو العمل الذى يتخذ مقياساً عادلاً لتحديد المصير فى الدنيا والآخرة، وهو موقف ينسجم تماماً مع فكرتى الاستخلاف والاستعمار الأرضى، ذلك أن القرآن يحدثنا أن مسألة خلق الموت والحياة أساساً إنما جاءت لابتلاء بنى آدم أيهم أحسن عملاً : "الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور" الملك / ٢.

ووفق هذه التوجيهات طرح الخطاب الإسلامى فى إطار الديانات والمذاهب فى تاريخ البشرية الزاخر، إن الإسلام - كدين - لم يأت لكى يقود الشخصية الإنسانية إلى مواقع الانعزال والسلب والفرار عن حركة الحياة وأن هذه الحياة الدنيا "قنطرة" وأن على المسلمين أن يعبروها ولايعمروها، ومن ثم يغدو "الدين" فى نظر البعض نقيضاً للتحضر، ويصبح الإيمان مقطوع الصلة بحركة التاريخ، ولكن المنهج الإسلامى للحياة "لايجعل الدين بديلاً عن الدنيا، ولايجعل سعادة الآخرة بديلاً عن سعادة الدنيا، ولايجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا". (١)

ليس هذا فحسب .. بل إن القرآن يندد بكل عمل أو نشاط خاطىء من شأنه أن يؤول إلى الفساد فى الأرض، وإلى هدم كل

---

(١) فى ظلال القرآن : جـ٢ : ص٩٣٠ .

إنجاز حضارى، وأى مكتسب يحققه العمل الإيجابى، وهو بذلك، يسعى إلى وقف كل مايعوق مسيرة الإنسان التاريخية ونموها، ودفع نشاطه فى الحياة لإقامة حضارة تتصف بالتكامل والتوازن درءاً للخلل والانفصام بين عناصر التجربة الحضارية .

وبذلك ندرك أن فكرة التاريخ فى القرآن الكريم تقوم على أساس أن التاريخ فعل إنسانى فى التحليل الأخير، فالفعل التاريخى نتاج لتفاعل الإنسان مع بيئته فى إطار الزمان، وهو أيضاً خير وسيلة لكشف ماهية الإنسان، ولذلك نجد المادة التاريخية فى القرآن الكريم تحكى قصة الأقوام والحضارات فى التاريخ البشرى، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ومدين وغيرهم .[1]

وكما تقول دراسة علمية متخصصة "إن الإسلوب القصصى فى القرآن يعتبر من أنجح الوسائل للتقويم والهداية، وقد روى القرآن أخبار الأمم السالفة، فقدمها إلى القلب والشعور بطرق مثيرة لعواطف الخير، صارفة عن نوازع الشر، تحمل فى طياتها بذور الإيمان".[2]

---

(١) د . قاسم عبده قاسم : تطور مناهج البحث فى الدراسات التاريخية : عالم الفكر : ص١٨٣ : الكويت : العدد ١ / ١٩٨٩ .

(٢) د . التهامى نقرة : سيكولوجية القصة فى القرآن : الشركة التونسية للتوزيع : ص٩ : بتونس .

كما أن الأحداث التى احتواها القصص القرآنى عبرت عن العديد من السنن التى تحكم حركة التاريخ البشرى، وسنعرض لذلك فى حينه من سطور هذا البحث .

إن التاريخ - ولاسيما تاريخ الأنبياء والرسل وماجرى لهم مع البشر يحتل حيزاً كبيراً من القرآن، وعلى هذا التاريخ يركز ماوسعه التركيز، فى بيان مايهدف إلى بيانه، وإقناع المدعوين بدعوته، وجاء المؤرخون المسلمون على الأثر، وهم مشبعون بتعاليم القرآن، فإذا بهم ينطوون عن وعى وغير وعى على هذا الشمول، ويواجهون التاريخ - تاريخ الإنسانية جمعاء - بفكر شامل، ويحاول بعضهم بما لديهم من معلومات وإمكانات ووسائل أن يرسموا طريق البشرية من "بدء الخليقة" فى جميع الحقول والميادين إلى العهد الذى كان يحيا كل واحد منهم فيه[1] وحول هذه النقطة يقول أحد المستشرقين "من الدوافع العملية لدراسة التاريخ توفر المادة التاريخية والقصص التاريخى فى القرآن، مما دفع مفسرى القرآن إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ماجاء فيه، وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية على مر الزمن، أحد فروع المعرفة التى تمت بالارتباط بالقرآن"[2] .

---

(١) عبد الفتاح شرارة : الفكر التاريخى فى الإسلام : دار الأندلس : بيروت : ص٦ : ط٢ : ١٩٨٢ .

(٢) روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين : ص٤١ .

وقد ظل القرآن الكريم القاعدة الأصلية التى ارتكزت عليها قيم المجتمع الإسلامى، ومذاهب التشريع والأخلاق، والنشاط العملى والثقافى فيه، فقد نشأت بظهور الإسلام نظرة جديدة إلى الوجود، فقد أكد القرآن وجوب الاعتبار الدينى والخلقى والاجتماعى بما حدث فى الماضى للأمم السابقة، كذلك جاء القرآن بنظرة عالمية إلى التاريخ تتمثل فى توالى النبوات التى هى فى أساسها رسالة واحدة بشر بها أنبياء عديدون، وكان الرسول الأكرم خاتم هؤلاء النبيين والمرسلين.[1]

وفى دراسة هامة لإلبان ويد جيرى Alban G. widgery يؤكد على أن التأملات فى الحوادث - وفقاً لرأى المسلمين - لم تكن هى التى قادت إلى النظرة الإسلامية إلى التاريخ، بل الأفضل منها هى الكيفية التى يجب على الناس أن ينظروا بها إلى التاريخ، كما يتضمن القرآن الذى يؤدى إلى الاهتمام بما كان يعتبر تاريخاً إبان نزوله، وكان القرآن تأييداً للموقف الذى يوصى به إزاء التاريخ، يستنبط أمثلة عديدة من التاريخ الحالى ليظهر مطابقته لمبادىء هذا الوحى: "قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين" النمل / ٦٩[2] .

---

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية : ص٣١٧ .

(٢) إلبان ويد جيرى : المذاهب الكبرى فى التاريخ : ترجمة : ذوقان قرقوط : ص١٣٠ : بيروت : دار القلم : ط١ : ١٩٧٢ .

ومن أهم العوامل التى ساهمت فى تأسيس علم التاريخ عند المسلمين - بعد القرآن - شخصية الرسول ﷺ ، وسيرته وأقواله وأفعاله، لأن المسلم قد استوعب قوله تعالى "وماأتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا" الحشر / ٧ .

كذلك مثلت شخصية الرسول ﷺ النموذج والمثال والقدوة للإنسان المسلم مصداقاً لقوله تعالى "لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر" الأحزاب / ٢١ .

لقد وضع الرسول نفسه، البذور التى نجنى منها اهتمام واسع بالتاريخ، وكان التاريخ يملأ تفكير الرسول لدرجة كبيرة، وقد ساعد عمله من حيث العموم فى تقدم نمو التاريخ الإسلامى فى المستقبل.(١)

يضاف إلى ذلك أن أفكار الرسول التاريخية، نشطت دراسة التاريخ نشاطاً لامزيد عليه، فقد أصبحت أعمال الأفراد وأحداث الماضى وحوادث كافة شعوب الأرض، أموراً ذات أهمية دينية، كما أن شخصية الرسول كانت خطاً فاصلاً واضحاً فى كل مجرى التاريخ، ولم يتخط علم التاريخ المتأخر هذا الخط قط.(٢)

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين : ص٢٨ .

(٢) نفســـه : ص٤٠ .

وحول الأحداث التى عايشها الرسول ﷺ وأرخ لها القرآن، نجد "أن نزول هذه الآيات التى تذكر هذه الأحداث له أهمية فى التاريخ الإسلامى، لأن الأحداث التى أشارت إليها صارت لها أهمية تاريخية كبرى للمسلمين، واستثارت البحوث التاريخية". (١)

والرسول ﷺ ليس مجرد مقدمة قومية للتاريخ الإسلامى، ولكنه منهج كامل فى فهم الحركة الكونية بأشكالها الطبيعية والتاريخية، وقد كانت رسالته نظرياً وعملياً، هى مقدمة أخذنا بحكمة الأحداث لافى مواضعها الجزئية، ولكن فى امتدادها الغيبى. (٢)

فكان للاهتمام بالأحاديث النبوية أثره فى ظهور أحد أنماط الكتابه التاريخية فى الحضارة الإسلامية وهو "السيرة والمغازى" التى كانت استجابة لحاجة ثقافية اجتماعية فى المجتمع المسلم الذى أراد أفراده الوقوف على تفاصيل حياة الرسول ﷺ وأفعاله التاريخية. (٣)

---

(١) نفســـه : ص٤١ .

(٢) العالمية الإسلامية الثانية : ص١٣٣ .

(٣) تطور مناهج البحث فى الدراسات التاريخية : مصدر سابق : ص١٨٦ - ١٨٧ .

ففى الكتاب والسنة وردت كثير من الأخبار التاريخية القديمة كسير الأنبياء ومواقف أقوامهم منهم، أو الأخبار المعاصرة لنزول الرسالة إلى محمد ﷺ مثل بعض حوادث السيرة النبوية ومواقف أهل الأرض من الدعوة الإسلامية، كما أنه قد جاء فى الكتاب والسنة الإشارة إلى الأحداث المستقبلة، سواء كان وقوعها فى الحياة الدنيا أو فى الآخرة .[1]

ومن خلال عالمية الرسالة الإسلامية، وامتداد الفتوحات الإسلامية عبر الحضارات والمجتمعات المختلفة، والتى احتوت على عناصر ثقافية وعقدية تختلف عن المذهبية الإسلامية، وفى ظل هذا الاحتكاك الحضارى بدأت بواكير الوعى بذاتية الأمة الحضارية، وبدأ معها اهتمام العقل المسلم بالتاريخ كعلم له أدواته ومناهجه، وكقيمة تساهم فى تربية الوعى الحضارى .

لذلك كان علم التاريخ الإسلامى فى كل العصور وثيق الارتباط بالتطور العام للحركة الفكرية الإسلامية، وكانت مكانة المعرفة التاريخية فى التربية الإسلامية، ذات أثر حاسم فى المستوى الفكرى للكتابة التاريخية، كما أن تبدلات التاريخ الإسلامى يمكن أن تفهم جيداً إذا عرضت ضمن النطاق العام للثقافة الإسلامية.[2]

---

(١) محمد صامل السلمى : منهج كتابة التاريخ الإسلامى : ط١ : ١٩٨٨ - القاهرة : دار الوفاء : ص٢١٨ .

(٢) روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين : ص٤٥ .

وقد صورت لنا أحد المصادر الهامة فى التأريخ لعلم التاريخ، قيمة المؤرخين المسلمين فى هذا الميدان بقوله .. حسبهم أنهم خلقوا للمؤرخ الحديث ثروة تاريخية طائلة، وأن العلم الحديث يسجل لهم أنهم أول من ضبط الحوادث بالإسناد والتوقيت الكامل، وأنهم مدوا حدود البحث التاريخى، ونوعوا التأليف فيه وأكثروه إلى درجة لم يلحق بهم فيها من تقدمهم أو عاصرهم من مؤرخى الأمم الأخرى، وأنهم أول من كتب فى فلسفة التاريخ والاجتماع وتاريخ التاريخ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقاتهم بأول واجب المؤرخ وآخره، وهو الصدق فى القول والنزاهة فى الحكم [(١)]

ولم يتركوا جانباً من جوانب النشاط الإنسانى القديم والمعاصر لهم إلا سجلوا تاريخه. [(٢)]

---

(١) هرنشو : علم التاريخ : ترجمة عبد الحميد العبادى : ص٦٩ : القاهرة : لجنة التأليف .

(٢) د . السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب : القاهرة : دار الكاتب العربى ١٩٦٧ : ص٣ .

علاقة الفلسفة بالتاريخ :

صارت فلسفة التاريخ فى الدراسات الحديثة مصطلحاً يشير إلى جانبين مختلفين من جوانب دراسة التاريخ : الجانب الأول يتعلق بدراسة مناهج البحث فى هذا العلم من وجهة النظر الفلسفية، وهذه الدراسة تتضمن فى جملتها الفحص النقدى الدقيق لمنهج المؤرخ .

والجانب الآخر من جوانب دراسة التاريخ فى الفلسفة الحديثة، فإنه يدخل فيما يسمى بالنشاط التركيبى فى الفلسفة الذى هو مهمتها الرئيسية، حيث تحاول إيجاد مركب لكل المعارف ولتجربة الإنسان الكلية، وهنا ينصب الاهتمام على النتيجة العامة بدلاً من البحث فى المناهج والأدوات المستخدمة.(١)

وتاريخ الفلسفة ذاته ليس رصداً ميتاً للمذاهب والنظريات الفلسفية عبر التاريخ، دون رجوع إلى ظروفها التاريخية، وتعبيرها عن روح العصر، بل هى معرفة التجارب البشرية الفردية والاجتماعية والتاريخية التى خرجت منها هذه الفلسفات، فتاريخ الفلسفة بهذا المنظور هو تاريخ الإنسان فى مواجهة الواقع وحركة التاريخ، لذلك كان هناك نوع من تاريخ الفلسفة يقوم بالرصد الكمى لتاريخ الأفكار بلا منظور أو قانون أو دلالة، والمنهج الآخر هو

---

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية : ص١٤٧ .

محاولة الدخول فى أعماق التاريخ والذهاب إلى ماوراء الأفكار لمعرفة دلالاتها على عصورها وظروف نشأتها والتجارب الحية التى وراءها، وصلتها بالمرحلة التى قبلها، وتمهيداً للمرحلة التى بعدها.(١)

ولقد أصبح الاهتمام بالتاريخ فى واقعنا المعاصر من أهم النواحى التى تساهم فى التكوين الفكرى والثقافى لكافة التوجهات المذهبية والفكرية، وذلك لأن الاهتمام بالتاريخ هو اهتمام بصانع هذا التاريخ، وهو الإنسان الذى هو محور الفعالية فى حركة التاريخ ووجهته.. "وقد حدث تغييراً جذرياً بالفعل فى طرق الكتابة التاريخية، فلم يصبح التاريخ مجرد سرد لأحداث المعارك وسير الملوك وأخبار البلاط، وإنما شمل التاريخ شتى مظاهر النشاط الإنسانى، من عادات ومعتقدات وتشريع وعلم وفلسفة وفن وتكنولوجيا وتجارة وصناعة، إن الحروب وسير الملوك لاتفصح عن التقدم بمقدار مايفصح عن نشاط الشعب فى مجالات العلم والفن والفلسفة، والأدب والتكنولوجيا وغير ذلك".(٢)

---

(١) د . عزمى إسلام : فى فلسفة العلوم الإنسانية : عالم الفكر : م١٥ : ع٣ : ١٩٨٤: ص٢٤٤ .

(٢) د . أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ : ص٨٢ - ٨٣ : الإسكندرية : مؤسسة الثقافة الجامعية : بدون .

فدراسة التاريخ سواء لتسجيله، أم لفلسفة حركته ووجهته، لايمكن أن تتم إلا من خلال رؤية فكرية نابعة من الموقف الإنسانى، الذى يحدد هوية الباحث، ويوجه تطلعاته نحو استيعاب الحدث التاريخى، ومن ثم يستطيع الفكر التاريخى المساهمة بقدر يتسم بالفعالية فى حركة الإنسان وتوجهه نحو المستقبل .

إذاً فالمستقبل يرتبط بالماضى عن طريق الحاضر، ارتباطاً معنوياً فى فلسفة التاريخ، إذ أن الحاضر حصيلة الماضى، فالتاريخ الماضى هو الذى جعلنا على مانحن عليه فى الحاضر، وأن الصورة التى نرسمها عن التاريخ، تشكل عاملاً فى اختيارنا والوسيلة التى نفكر بها عن التاريخ تحدد إمكانياتنا.[1]

فالتاريخ إذن لايسير اعتباطاً، وإنما حسب حدود مرسومة، وهذه الحدود هى المنطق الذى يربط حوادث التاريخ وينظمها، وهذا المنطق عبارة عن فروض عامة، أى فلسفة تصبغ تموجات التاريخ بصبغتها .

ويرى "روزنتال" أنه كان بإمكان الفلسفة الإسلامية أن تكون أقدر من كل العلوم (الأنساب - التراجم - الجغرافيا - الوثائق

---

(١) فى فلسفة التاريخ : ص.١٣٠ .

والنقوش - العلوم السياسية والاجتماعية - التنجيم) على الإجابة عن مشكلات التاريخ الكبرى، غير أن المؤرخين المسلمين لم يستخدموها قط بشكل فعال لتحقيق هذا الغرض، حيث دارت فى أذهان المؤرخين مسألة أساسية وهى مدى الثقة بالأخبار التاريخية وعلاقتها بالحقيقة، غير أنهم فى أبحاثهم التاريخية، لم يجعلوها موضوعاً لمناقشة نظرية، وبذلك كانوا يختلفون عن المتكلمين والفلاسفة.(١)

ويستطرد روزنتال قائلاً .. إن القضايا الفلسفية المتصلة بفكرة التاريخ هى من تطورات الفلسفة الحديثة، وهى تختلف كلياً عن مفهوم التاريخ فى الإسلام، وإن الفجوة بين الفكرة الحديثة والفكرة الإسلامية فى العصور الوسطى عن التاريخ لم يملأها شعور المؤرخين المسلمين بعنصر التبدل الذى يؤثر فى السلوك الإنسانى كمنبع عام للتاريخ.(٢)

فما هو نصيب الأقوال التى رددها "روزنتال" من الصحة ؟ وهل انفصل التاريخ عن الفكر فى تراثنا؟ وماهو نصيب علم التاريخ ومكانته من تراثنا الفكرى؟ وماهى أوجه التميز التى ميزت

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين : ص١٥٩ .

(٢) علم التاريخ عند المسلمين : ص٢٥ - ٢٧ .

الخطاب الإسلامى فى المجال التاريخى؟ . سيكون من نافلة القول تكرار ماذكرناه فى فقرات سابقة حول تأثير القرآن والسنة فى تأسيس وصياغة علم التاريخ فى التراث الفكرى الإسلامى، لكننا نؤكد على أن جهود المسلمين فى ميدان الفكر التاريخى اشتملت على الميادين الآتية :

أولاً : الجانب النظرى فى الفكر التاريخى والذى تبرزه بوضوح المرجعية الإسلامية الأصولية حول مفهوم التاريخ فى إطار منهج السنن التى تحكم حركة التاريخ البشرى، وهى أحد الجوانب التى امتدت حول العديد من الكتابات والجهود المنهجية.(١)

والجانب الثانى يتمثل فى صياغة وبلورة علم التاريخ الإسلامى من خلال الجهود المختلفة فى التراث الفكرى الإسلامى كما ظهر ذلك عند المحدثين والمؤرخين والفقهاء بالإضافة إلى مكانته فى تصنيفات الفلسفة الإسلامية .

---

(١) نذكر منها : التفسير الإسلامى للتاريخ للدكتور عماد الدين خليل وحتى يغيروا مابأنفسهم لجودت سعيد وحركة التاريخ فى المفهوم الإسلامى لسميح عاطف الزين وحول التفسير الإسلامى للتاريخ لمحمد قطب وتفسيرا لتاريخ علم إسلامى للدكتور عبد الحليم عويس وغير ذلك .

وفى حقيقة الأمر، فإن التطور الذى ألم بعلم التاريخ عند المسلمين بلغ حداً جعل من الضرورى للمؤرخين ولعامة المثقفين أن يقفوا على الأسس النظرية التى يقوم عليها هذا العلم، سواء من حيث تعريف التاريخ ووظيفته الحضارية، أو من حيث منهج البحث التاريخى، ومثل وجود هذه الكتابات النظرية تعبير عن مدى نضج فكرة التاريخ بمقاييس ذلك الزمان.(١)

ولعل أول مايطالعنا به تراثنا الفكرى فى ميدان الفكر التاريخى فى إطاره النظرى، تلك الجهود المنهجية الضخمة التى قدمها عبد الرحمن ابن خلدون ٧٣٢ هـ - ٨٠٨ هـ والذى يعد من أبرز العلامات التى أفرزها تراثنا الفكرى فى هذا الميدان، وهو يعتبر بحق، خلاصة الحقل المعرفى "لفلسفة التاريخ والحضارة والعمران البشرى" حيث حاول استجلاء أهم العوامل والأسس التى تتقدم من خلالها الحضارة، وكذلك العوامل والأسباب التى تؤذن بانهيارها ، وذلك انطلاقاً من أرضية فكرية إسلامية شكلت وبلورت الصياغة النهائية لفكره التاريخى والحضارى.(٢)

---

(١) الرؤية الحضارية للتاريخ : ص١١٠ .

(٢) بالرغم من وضوح المرجعية الإسلامية فى فكر ابن خلدون، إلا أنه قد بذلت محاولات استشراقية وغربية تطعن فى أصالة الفكر الخلدونى، ومن أهم الدراسات المنهجية التى تناولت إبراز هذا البعد ينظر فى هذا "إسلامية تفسير ابن خلدون للتاريخ" للدكتور عماد الدين خليل و "الأسس الإسلامية فى فكر ابن خلدون" للدكتور مصطفى الشكعة .

ولأننا لسنا فى معرض الحديث عن ابن خلدون وجهوده فى ميدان الفكر التاريخى، فحسبنا أن نقف عند فقرات محددة لها ارتباطها بسطور بحثنا هذا، ومن أولى النقاط الجديدة بالذكر فى هذا الإطار تفرقته بين ظاهر التاريخ وباطنه حيث يقول "إن فن التاريخ من الفنون التى تتداوله الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والاقيال، إذ هو فى ظاهرة لايزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل فى الحكمة وعريق، وجديد بأن يعد فى علومها وخليق" (١) .

وحول حاجة المؤرخ إلى تنوع المعارف والأفكار يرى ابن خلدون "أن المؤرخ محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالطات لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى، ولاقيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن بها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ص٢ ، ٥ : ط١ - المطبعة البهية - القاهرة .

الصدق، وكثيراً ماوقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل، المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، لم يعرضوها على أصولها، ولاقاسوها بأشباهها ولاسبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط". (١)

ويعترف "روزنتال" نفسه بهذا حيث يقول .. إن أعظم ماقام به ابن خلدون هو تطبيق الأفكار السياسية والاجتماعية المبعثرة على التاريخ، الذى يعتبره القوة الحية التى تربط الماضى بالحاضر بعملية واحدة مستمرة، فالإنسان والبيئة والجهود الفردية والتنظيمات الاجتماعية كلها مادة أولية للتاريخ حسب تحليل ابن خلدون العميق." (٢)

إن وثوق الحديث وصرامة النقد اللذين تنطق بهما المقدمة، منذ صفحاتها الأولى لابد وأن يثيرا اهتمامنا لسببين اثنين : أولهما أن النقد هنا شامل أى ينصب على علم التاريخ العربى كله ومنذ أصوله، وثانيهما، أن هذا النقد جذرى، يطعن فى المنهج الأصلى الذى قام عليه تاريخ تقليدى أقصى مايمكن أن يبلغه - حين لايكون خاطئاً - هو كونه علماً بظاهر التاريخ لابعمقه، لأن أحداث التاريخ

---

(١) المقدمة : ص٧ .

(٢) علم التاريخ عند المسلمين : ص١٦٦ .

- رغم تغيرها وتبدلها - إلا أن الحديث عنها لم يتغير، وهذا ماحاوله ابن خلدون ونجح فيه إلى حد كبير، حيث قام بإحداث تغيير جذرى فى الكتابة التاريخية (أى الخطاب التاريخى) ملائم للتغيير الجذرى الذى وقع فى التاريخ .[1]

هذا التحول فى منهج البحث التاريخى - والذى أحدثه ابن خلدون من خلال مقدمته - قد أسهم فى فى تعميق الجانب النظرى للفكر التاريخى عند المسلمين .

ومن الخطأ الوقوف عند جهود ابن خلدون النظرية فى هذا الميدان دون الولوج إلى جهود العقل المسلم فى المراحل السابقة على عصر ابن خلدون، لأن ذلك يمثل تجنياً واضحاً على واحد من المحاور المعرفية الهامة فى تراثنا الفكرى وخاصة فى ميدان "الفكر التاريخى ومناهجه المختلفة" .

فإلى المسعودى ت ٣٤٦ هـ ينسب الفضل فى تغيير منهج الدراسة التاريخية من مجرد السرد التاريخى السياسى المقتصر على مافى الأسانيد إلى التاريخ الثقافى للمجتمعات الإنسانية فى العالم بصفة عامة، ولقد أثار المسعودى فى هذا الصدد مشكلات تعد بحق

---

(١) على أو مليل : الخطاب التاريخى : دراسة لمنهجية ابن خلدون : منشورات معهد الإنماء العربى : بيروت : ص١١ - ١٢ : بدون .

جديدة على الثقافة الإسلامية مثل مسألة العلاقة بين البيئة الطبيعية والتاريخ وغير ذلك.[1]

ولقد عبر ابن خلدون نفسه عن دور المسعودى فى تطور فكرة التاريخ عند المسلمين، فقال بعد أن ذكر عدداً من أوهام المؤرخين وأخطائهم الشائعة : "ولنذكر هنا فائدة نختم عملنا فى هذا الفصل بها، وهى أن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل، فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار فهو أس للمؤرخ تنبنى عليه أكثر مقاصده، وتتبين به أخباره، وقد كان الناس يفردونه بالتأليف، كما فعله المسعودى فى كتاب : (مروج الذهب) شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده فى عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً، وذكر نحلهم وعوائدهم، ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول، وفرق شعوب العرب والعجم، فصار إماماً للمؤرخين، يرجعون إليه، وأصلاً يعولون فى تحقيق الكثير من أخبارهم عليه.. وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة، فقد انقلبت أحوال المغرب الذى نحن مشاهدوه وتبدلت بالجملة، وكأنى بالمشرق قد نزل به مثل مانزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون فى العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة، والله وارث الأرض ومن عليها، وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد،

---

(١) ينظر فى ذلك : المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر : المقدمة .

ونشأة مستأنفة، وعالم محدث، فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة، والآفاق وأجيالها، والعوائد والنحل التى تبدلت لأهلها، ويقفو مسلك المسعودى لعصره، ليكون أصلاً يهتدى به من يأتى من المؤرخين من بعده، وأنا ذاكر فى كتابى هذا ماأمكننى منه فى هذا القطر المغربى إما صريحاً أو متدرجاً فى أخباره، دون ماسواه من الأقطار لعدم إطلاعى على أحوال المشرق وأممه ولأن الأخبار المتناقلة لاتفى كنه ماأريد منه، والمسعودى إنما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه فى البلاد كما ذكر فى كتابه"[١] .

وبذلك يقرر ابن خلدون دور المسعودى فى المعالجات الفكرية الخاصة بمسيرة علم التاريخ فى التراث الفكرى الإسلامى .

ومن أدق المحاولات - كما يعترف روزنتال نفسه - لإخضاع التاريخ للفلسفة هى التى قام بها المطهر بن طاهر المقدسى فى كتابه "البدء والتاريخ" الذى ألفه فى ٣٥٥ هـ والذى توفى بعد ٣٥٥ هـ . ففى مقدمة هذا الكتاب بحث نظرى عن المعرفة والعقل، ويتجلى فيه استهداف المؤلف النظر إلى الكون وتاريخه بمنظار الفلسفة، فهو بجانب البحث التاريخى الذى يتعرض فيه لخلق العالم وسيرة الرسول ﷺ وصحابته، وتاريخ الدولتين الأموية والعباسية، فإنه يعرض لعدد من الموضوعات الفلسفية، كصفات الخالق، والأهمية الثقافية

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ص٣٣ .

والفلسفية للأديان القديمة، والخلافات فى العقائد بين مختلف الفرق الإسلامية، وغير ذلك من الموضوعات العلمية والفلسفية، ويؤكد روزنتال على أن "المقدسى" قد حاول إيجاد اتحاد بين الفلسفة بأوسع معانيها والتاريخ.(١)

كذلك نجد "مسكويه" ت ٤٢١ هـ الذى كان شغوفاً بالأخلاق وفلسفتها ، كان له إسهاماته الواضحة فى ميدان الفكرى التاريخى، وخاصة فى كتابه "تجارب الأمم ومناقب الهمم" الذى يحاول فيه إخضاع الواقعة التاريخية للقيمة الأخلاقية، بالإضافة إلى منهجه الذى ينحو طريق التأمل النظرى، والتدبر العقلى .

ومن أهم الذين ساهموا فى صياغة الفكر التاريخى فى الحضارة الإسلامية وخاصة فيما يتعلق بقضية المنهج، أبو الريحان البيرونى ٣٦٢ هـ - ٤٤٠ هـ وخاصة فى كتابيه "تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرزولة." والثانى "الآثار الباقية عن القرون الخالية" ، حيث أبرز بوضوح موضوع المنهج بالنسبة للكتابة التاريخية، وخاصة فيما يتعلق بموضوعية المؤرخ، وأهمية المشاهدة المباشرة والملاحظة بخصوص الواقعة أو الحدث، بالإضافة إلى رفضه للأهواء والآراء الشخصية فى التاريخ، وبذلك سار البيرونى خطوة كبيرة فى ميدان الفكر التارخى شكلت إضافة حقيقية للموروث الفكرى الإسلامى فى هذا الميدان .

(١) علم التاريخ عند المسلمين : ص١٦١ .

وهذا "صاعد الأندلسى" ٤٢٠ هـ - ٤٦٢ هـ فى كتابه "طبقات الأمم" الذى حاول فيه أن يبرز أثر البعد الجغرافى فى صياغة وبلورة العلوم والمعارف فى المجتمعات والحضارات المختلفة، ويقوم فى هذا الكتاب بتقسيم المجتمعات الإنسانية على أساس معارفها وإسهاماتها العلمية إلى أمم متحضرة وشعوب بدائية .

ولايمكن أن نغفل الدور الكبير الذى أداه "ابن حزم الأندلسى" ٣٨٤ هـ - ٤٥٦ هـ حيث جمع إلى جانب ثقافته الكلامية والمنطقية وإضافاته الواضحة فى علم "مقارنة الأديان" ، ثقافة تاريخية واسعة، وخاصة فى مؤلفاته "طوق الحمامة" الفصل فى الملل والأهواء والنحل" ، "الأخلاق والسير" و "جوامع السيرة" و "فضائل الأندلس وأهلها" ، وغير ذلك من المؤلفات والرسائل التى تبرز تفرده بمنهجية واضحة المعالم فى الفكر التاريخى .

وقد ألمحت دراسة هامة حول فلسفة التاريخ عند ابن خلدون" إلى الطابع العام الذى يجمع بين "المسعودى" و "مسكويه" و "البيرونى" حيث تطورت فكرة التاريخ فى كتاباتهم تطوراً جديداً، فانتقلوا بها من الوقوف عند جمع الروايات التاريخية إلى التطلع الواعى إلى التأريخ لحضارات العالم من حولهم تأريخاً ثقافياً.[1]

---

(١) Mohsen Mahdi : Ibn Khaldun,s philosophy of history

والحقيقة أن تأملات المؤرخين المسلمين الفلسفية حول فكرة التاريخ بعد الطبرى، قد تطورت تطوراً كبيراً عندما شرع بعض المتكلمين والفلاسفة يشككون بصفة عامة فى جدوى هذا العلم وفائدته، وصلته بالحقائق العليا كما يتصورها الفلاسفة والمتكلمون، فاضطر بعض المؤرخين إلى الرد عليهم، وتوضيح مايقصدونه بفكرة التاريخ خلال كتاباتهم التاريخية دفاعاً عن التأليف فى التاريخ .

والملاحظة الأساسية التى تتعلق بمكانة التاريخ داخل تصنيفات العلوم عند المسلمين، أن التاريخ - كعلم - إما غائب عن هذه التصنيفات، وإما يشغل مكاناً ثانوياً كمساعد للعلوم الدينية، وذلك حسب نمط التصنيف نفسه، فالتصنيفات التى لايوجد بها علم التاريخ غالباً ماتقتدى بنموذج يونانى فى تصنيف العلوم، أما حين يثبت التاريخ فى تصنيف ما فإنه يكون من النمط الذى يحاول الجمع بين العلوم الأجنبية والعلوم الأصلية.(١)

فعلم التاريخ لم يرد فى تصنيف أرسطو للعلوم، وحين سيتبنى فلاسفة إسلاميون هذا التصنيف فهم بدورهم سيغفلون التاريخ على الرغم من خصوصية هذا العلم فى الثقافة الإسلامية فى مقابل الوافد اليونانى الذى ترجم وانتشر فى البيئة الإسلامية .

---

(١) على أو مليل : الخطاب التاريخى : مرجع سابق : ص٤٦ .

والفارابى (ت ٣٩٩ هـ) فى كتابه "إحصاء العلوم" الذى يعد أقدم ماوصل إلينا فى هذا الباب، أدخل العديد من العلوم الأصلية الإسلامية ضمن التصنيف الذى وضعه، ولكنه غيب التاريخ عن هذا التصنيف . (١)

وأما "ابن النديم" الذى وضع كتابه "الفهرست" حوالى ٣٧٧ هـ وهو مرجع هام لمعرفة التراث العلمى فى الثقافة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، وهو يصنف التاريخ ضمن العلوم التقليدية محافظاً على تسميته الأصلية "الأخبار والسير" . (٢)

"وابن حزم" في كتابه "مراتب العلوم" وضع مقياساً لجدوى كل علم، وأدرج علم "التاريخ" ضمن العلوم النافعة، بتسميته الأصلية "علم الأخبار" . (٣)

وفى التصنيف الذى أورده "الغزالى" (ت ٥٠٥ هـ) فى "إحياء علوم الدين" يتحدث عن التاريخ فى قسم العلوم الشرعية،

---

(١) انظر : إحصاء العلوم لأبى نصر الفارابى : تحقيق : د . عثمان أمين : مطبعة الاعتماد : ١٩٤٩ القاهرة .

(٢) انظر : الفهرست لابن النديم : ط ليبسك ١٨٧١ : جزآن فى مجلد .

(٣) انظر : ضمن رسائل ابن حزم الأندلسى : تحقيق د . إحسان عباس : القاهرة : مكتبة الخانجى .

محافظاً على تصوره الأصلى فهو علم بسيرة النبى وأخبار أصحابه وهو أيضاً يسميه "علم الأخبار والآثار" .[1]

وعند ابن خلدون نجد أن "علم التاريخ" قد أخرج تماماً من مجال العلوم التقليدية، حيث يصف علم التاريخ بأنه "أصيل فى الحكمة عريق، وجدير بأن يعد فى علومها وخليق" .[2] فقد ضمه "ابن خلدون" إلى العلوم الفلسفية (الحكمة) لأنه دعا إلى درس التاريخ بمنهج عقلانى لأنه اعتبره كالعلم الطبيعى، له قوانينه وأدواته الموضوعية، فانتزع التاريخ من مجال العلوم الشرعية، ليلحق بمجال العلوم العقلية، وقد مهد لهذا الإلحاق منذ مفتتح مقدمته، وهو يوجه نقده إلى المنهج التقليدى للتاريخ، وهذا هو مغزى نقده لمنهج "الإسناد".[3]

وحول التأثير الأجنبى فى الفكر التاريخى عند المسلمين يقول "العروى"، إن تأليف التاريخ الإسلامى من إبداع العرب، لقد فشلت كل المحاولات للعثور على مؤثرات خارجية يونانية أو فارسية، فليس التاريخ الإسلامى نقلاً أو اقتباساً أو استعارة من الغير، وسيعتقد العرب لمدة طويلة ويفخروا أنهم وحدهم شعب تاريخ

(١) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى : ج١ : ص١٣ : ط المكتبة التجارية بمصر .

(٢) مقدمة ابن خلدون : المطبعة البهية بمصر : ص٢ .

(٣) الخطاب التاريخى : ص٦٢ .

والشعوب الأخرى تملك فقط حكايات لايجد اليقين إليها سبيلاً، يحق لنا إذن أن نضع التاريخ فى مقام النحو، أى فى ميدان أظهر فيه عرب القرون الأولى أصالة وقوة على الخلق والإبداع لاشك فيهما.[1]

وفى فقرة بالغة الدلالة حول خصوصية الفكر التاريخى فى الثقافة الإسلامية، يرى "أومليل" "لن يكون من المجدى البحث فى مقدار النصيب الأجنبى لتبيان مدى أصالة علم التاريخ فى الثقافة العربية، فالإسلام كان فى حد ذاته حدثاً تاريخياً حاسماً كون لدى شعوب مختلفة وعياً بالإنتماء لإيديولوچيا جماعية واحدة، واعتقاداً بأنهم هم الوارثون للتاريخ، وهو ماتعكسه الكيفية التى كتب بها المؤرخون الإسلاميون تاريخهم بالنسبة لتاريخ العالم".[2]

كما أن نشأة الكتابة الفنية لدى العرب بعد الإسلام، كانت نشأة عربية خالصة، فقد كانت استمراراً للتراث التاريخى لدى عرب ماقبل الإسلام من ناحية، أو نمطاً من أنماط المعرفة التاريخية التى نشأت بعد الإسلام مثل التفسير والحديث والسيرة والمغازى من ناحية أخرى، وهى علوم لاقبل للمؤثرات الوافدة إلى البيئة

---

(١) عبد الله العروى : العرب والفكر التاريخى : المغرب : الدار البيضاء : المركز الثقافى العربى : ط٢ : ص٧٩ .

(٢) على أومليل : الخطاب التاريخى : مرجع سابق : ص١٥ .

الإسلامية بها، بل ولم تعرفها ضمن أطرها الفكرية الخاصة[1] .

إن النظرة إلى التاريخ هى بأعماقها حصيلة الجهد الإنسانى فى حقبة زمنية ما، وفى إطار بيئى يكون مدار البحث، بحيث تكون هذه النظرة التاريخية، نافذة يطل منها النظر الفكرى من الزاوية التى يتخذها الدارس على العالم، الماضى والحاضر فى آنٍ معاً، ووفق هذه الرؤية نستطيع أن ندرك بجلاء خصوصية وذاتية الفكر التاريخى الإسلامى، بوصفه إنعكاساً لهوية الثقافة الإسلامية وفى إطار أسسها العقدية والحضارية التى صاغت وبلورت الحضارة الإسلامية فى تاريخ الحضارات .

---

(١) الرؤية الحضارية للتاريخ : ص٩٣ .

٣

الفصل الثانى

الفكر التاريخى عند الكافيجى والسخاوى

الفصل الثانى

الفكر التاريخى عند الكافيجى والسخاوى

حين أبرزنا لعدد من النماذج التى ساهمت فى صياغة الجانب النظرى لعلم التاريخ فى الفكر الإسلامى، فإننا - وفى هذا الإطار - نقدم لإثنين من المؤرخين المسلمين، ساهما بصورة مباشرة فى صياغة الجانب النظرى للفكر التاريخى فى الإسلام، وهما "أبو الخير شمس الدين السخاوى" والثانى "محيى الدين الكافيجى"، وذلك لقناعتنا الفكرية بأهمية الإسهامات التى قدماها لهذا الجانب من تراثنا الفكرى، وذلك من خلال دراسة تحليلية لرؤيتهما ومنهجهما فى فهم التاريخ وقضاياه، وخاصة أن ماساهما به فى هذا الميدان قد تعدى من الناحية الزمانية الفترة التى ازدهر فيها الفكر التاريخى الإسلامى وخاصة عند ابن خلدون الذى توفى فى عام ٨٠٨ هـ وبعده "الكافيجى" الذى توفى فى عام ٨٧٩ هـ ثم "السخاوى" الذى توفى فى عام ٩٠٢ هـ .

ولعلنا بذلك نقدم محاولة متواضعة تهدف إلى إبراز أهمية الفكر التاريخى فى الموروث الثقافى للحضارة الإسلامية، ولأننا

ندرك قيمة ارتباط ارتباط الزمن فى آناته الثلاثة ارتباطاً لاانفصام فيه ولاانفصال، تأكيداً على الاستمرارية التاريخية لمجتمع ما، فإن القراءة الواعية لتراثنا الفكرى فى ميادينه المختلفة، تبرز لنا أهمية التوظيف المعاصر للمحاور الفعالة فى هذا التراث، وبذلك يتواصل الموروث الفكرى مع الواقع المعاصر، استشرافاً لمستقبل فعال. وفى هذا المجال تأتى أهمية استلهام تراثنا التاريخى، من حيث إنه تعبير عن الأسس التى ساهمت فى صياغة وبلورة الكيان الحضارى الإسلامى فى التاريخ، كما أن هذه الرؤية الواعية للتراث تكسب المسلم المعاصر وعياً بأصالته الفكرية والحضارية، وبذلك يتحرك إلى المستقبل وهو موصول المنبت والجذور، ووفق هذه الرؤية ينطلق الفكر الإسلامى المعاصر متواصلاً مع ذاتيته التاريخية والحضارية.

والمقصود بالتراث التاريخى عند المسلمين، مرويات وجهود هذه الأمة المدونة حول كل مايتصل بنشاط الإنسان المسلم عبر تاريخه الحضارى وفى أطره الفكرية العامة، سواء فى ذلك مايتعلق بتسجيل الوقائع والأحداث التى مرت بها، ومايتصل بتفسيرها وفلسفتها .

ويشمل هذا التراث مؤلفات عربية إسلامية عدة، بدأت حين شعر العرب بعد ظهور الإسلام بأنهم أصحاب رسالة جديدة، خصوصاً بعد أن صاغ الدين الجديد، مفهوماً للحضارة، مغايراً

لكافة الأنماط والمذهبيات الحضارية المتزامنة مع الحدث الحضارى الإسلامى، هذا المفهوم الذى يعتمد على مجموعة من الأسس والمقومات التى تكونت فى أعماق الشخصية العربية المسلمة، ثم تحولت بفعل عوامل الدفع الغيبية فى إطار الجهد الإنسانى إلى قوة حضارية فى عالم المنظور.

لقد تدرجت المفهومات التى نشأت حولها فكرة التاريخ عند المسلمين، من العناية بالرواية والترجيح بين الأسانيد، إلى النظر فى أثر البيئة والعوامل الاجتماعية المؤثرة فى حركة التاريخ، حتى نصل إلى عصر ابن خلدون الذى تحول علم التاريخ إلى نظرية فى أسس الاجتماع العمرانى على يديه.[1]

لقد كانت لكل مجتمع رؤيته لوظيفة التاريخ الحضارية فى خدمة هذا المجتمع وأهدافه، وفى حدود هذه الرؤية لجدوى الدراسة التاريخية ووظيفتها الحضارية، تعددت أنماط الكتابة التاريخية التى تخدم هذه الرؤية.[2]

---

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية : ص٤٢٢ .

(٢) الرؤية الحضارية للتاريخ : ص٦١ .

ومع تطور المجتمع الإسلامى، تطورت معارفه ومناهجه وأدواته الفكرية، وخاصة فى ميدان الفكر التاريخى الذى يتخذ من أحداث ووقائع المجتمع، أرضية يرصد حركتها ويحلل مسائلها مقوماً مسارها، حتى استطاع العقل المسلم - فى هذا الميدان - أن يقدم لنا مجموعة من الرؤى والإتجاهات فى فهم الواقعة التاريخية فى إطار حضارى لاتخفى معالمه، منطلقاً من عدد من الأسس والمقومات التى شكلت وصاغت حركة الحضارة الإسلامية فى تاريخ الحضارات .

أولاً : الكافيجى

من هو ؟ هو "أبو عبد الله محيى الدين محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومى الحنفى" . ولد فى ٧٨٨ هـ وتوفى فى ٨٧٩ هـ .[١]

فى التعريف به : من كبار العلماء بالمعقولات، رومى الأصل، اشتهر بمصر ولازم السيوطى فترة طويلة، وعرف بالكافيجى لكثرة اشتغاله بالكافية فى النحو، ولى وظائف منها مشيخة الخانقاة الشيخونية، وانتهت إليه رياسة الحنفية بمصر.[٢]

وكان الشيخ رحمه الله تعالى، صحيح العقيدة فى الديانات، حسن الاعتقاد فى الصوفية، محباً لأهل الحديث كارهاً لأهل البدع، كثير التعبد على كبر سنه، كثير الصدقة والبذل، لايبقى على شىء سليم الفطرة، صافى القلب كثير الاحتمال لأعدائه، صبوراً على الأذى.[٣]

---

(١) مداخل المؤلفين والأعلام العرب : إعداد : محسن السيد الغرينى : منشورات جامعة الرياض ١٩٨٠ .

(٢) شذرات الذهب : جـ٧ : ص٣٢٧ .

(٣) الأعلام : للزركلى : ٧ / ٢٢ .

السخاوى والكافيجى : تعرض السخاوى للكافيجى فى موضعين من كتابه "الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع"، مرة حين تحدث عنه ضمن مؤرخى القرن التاسع الهجرى حيث قال "تصدى للتدريس والإفتاء، والتأليف، وخضعت له الرجالات وذلت له الأعناق، وصار إلى صيت عظيم، وشاع ذكره، وانتشرت تلامذته وفتاواه، وأخذ الناس عنه طبقة بعد أخرى، بل والطبقة الثالثة أيضاً، وتقدمت طلبته في حياته، وصاروا أعيان الوقت وتزاحموا عنده من سائر المذاهب والفنون، وبالجملة فقد صار علامة الدهر وواحد العصر ونادرة الزمان وفخر هذا الوقت والآوان، الأستاذ فى الأصلين والتفسير والنحو والصرف والمعانى والبيان والمنطق والهيئة والهندسة والحكمة والجدل والمرايا والمناظر مع مشاركة حسنة فى الفقه والطب، ومحفوظ كثير من الأدب واستعمال للنثر في كتاباته بل ربما اخترع بعض العلوم، وتأسف الناس على فقده، ولم يخلف مثله رحمه الله وإيانا. (١)

والموضع الثانى حين تحدث السخاوى عن نفسه، باعتبار الكافيجى ممن تأثر بعلمهم قائلاً ... الوحيد المشهود له بأنه إمام جليل، احفظ زمانه فى المنقول والمعقـول، بالاتفـاق المقدم على الكل،

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع فى علماء القرن التاسع : مكتبة القدسى : القاهرة : ١٣٥٤ هـ جـ٧ ينظر ترجمة السخاوى للكافيجى .

بالاستحقاق فى جميع البلدان والآفاق، أحسن الله تعالى إليه ونفعنا به وببركات علومه والمسلمين آمين .. [١]

ومن مؤلفاته "المختصر فى علم التاريخ" [٢] و "أنوار السعادة فى شرح كلمتى الشهادة" و "منازل الأرواح" و "معراج الطبقات" و"قرار الوجد فى شرح الحمد" و "نزهة المعرب" وهو فى النحو و"التيسير فى قواعد التفسير" و "حل الاشكال" فى الهندسة. و"الإحكام فى معرفة الإيمان والأحكام" و "جواب فى تفسير : والنجم إذا هوي" و "مختصر علم الإرشاد" . [٣]

وقد قام "فرانز روزنتال" بتحقيق المخطوطة الخاصة بـ "المختصر فى علم التاريخ" بدون دراسة لمحتواها، وقد ضمن النص كتابة "علم التاريخ عند المسلمين" [٤] .

وقد قال عنه بالرغم من حداثة تأريخه نسبياً [٥] فإنه أقدم رسالــة إسلاميــة معروفة لدينا عن نظرية علم "التأريخ" أما مقدمــة

(١) المرجع السابق : جـ٨ : ص٢٦ نقلناه كاملاً على مافيه من مبالغة .

(٢) وهو موضوع دراستنا .

(٣) كما ورد فى الاعلام للزركلى : جـ٧ : ص٢٢ .

(٤) علم التاريخ عند المسلمين : ص٣١٧ - ٣٧٠ جـ١ المثنى - بغداد : ١٩٦٣ ط١ .

(٥) سنة ٨٦٧ حسب رواية الكافيجى فى الفقرة الأخيرة من كتابه : ص٣٧٠ .

ابن خلدون فقد أريد بها أن تكون مقدمة لتأريخ عظيم، وكانت تبحث فى التأريخ، ولاتبحث فى كتابة التأريخ، إلا بصورة غير مباشرة، أما "الكافيجى" فقد حاول من جهة ثانية أن يكتب كتاباً يهتم بمعالجة نظرية للتأريخ دون غيرها، وإذا كان القسم الثانى للصفحات العشرين للمخطوطة المصرية للكتاب ملىء بالقصص التى يهدف منها إلى توضيح المناقشات النظرية، غير أنها فى الواقع أمور خيالية عادية، وحكايات عن الملائكة والأنبياء، مع بعض المعلومات التاريخية التى أضيفت إلى آخر الكتاب، وإذا كان النصف الثانى من الكتاب مليئاً بمادة لاقيمة لها[1] فإن القسم الأول يعوض تماماً عن نقائص القسم الثانى، ثم يتحدث روزنتال عن طبيعة المحتوى الفكرى للكتاب قائلاً" وهذا الكتاب جدير بالاعتبار، لأصالة طريقته وجودة كتابته، وقد أجاب باختصار عن المسائل المتعلقة بخصائص علم التأريخ وغرضه، وهدفه وفوائده، غير أنه كرس مجالاً أوسع للمعضلات الناجمة عن غموض كلمة "تأريخ" العربية، وعن مركز التأريخ فى العلوم الدينية الإسلامية"[2] .

فإذا كانت هذه نظرة "روزنتال" "للمختصر فى علم التاريخ" للكافيجى، فهل يمكن أن نلج مفهومه ومنهجه فى الرؤية التاريخية،

---

(١) فهى مادة تاريخية صرفة .

(٢) علم التاريخ عند المسلمين : ص٣١٨ - ٣١٩ .

حتى يتسنى لنا فى نهاية الأمر، إبراز القيمة العلمية والمنهجية لهذه السطور القليلة، التى تضمنها هذا الكتاب فى إطار الجانب النظرى لعلم التاريخ فى الثقافة الإسلامية .

تعريف التاريخ عند الكافيجى :

التاريخ فى اللغة : قبل أن نعرض لموقف "الكافيجى" من التعريف اللغوى للتاريخ، يحسن بنا اللجوء إلى مصادر أخرى للتعرف على المعنى اللغوى حت يتسنى لنا الوقوف على مايقوله "الكافيجى" فى هذا الإطار .

يقول "التهانوى" التاريخ فى اللغة تعريف الوقت، وقيل هو بمعنى الغاية، ومعنى قولهم فعلت فى تاريخ كذا فعلت فى وقت الشيء الذى ينتهى إليه.[1]

ويقول الجوهرى "التاريخ تعريف الوقت والتوريخ مثله يقال أرخت وورخت"[2]. وقيل اشتقاق من الأرخ" يعنى بفتح الهمزة

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى : ص٥٦ .

(٢) هو إسماعيل بن حماد الجوهرى صاحب كتاب "الصحاح" والمعنى بالصحاح: مادة أرخ: ٤١٨/١ .

وكسرها، وهو صغار الأنثى من بقر الوحش لأنه شيء حدث كما يحدث الولد.[1]

وقال آخرون إن أصل الكلمة معرب ومأخوذ من "ماه روز" بالفارسية، وماه هو القمر أو الشهر، وروز هو اليوم، ثم عربت الكلمة فصارت مؤرخ.[2]

وهناك من يرى أصل الكلمة مأخوذ من اللغة العربية، اعتماداً على رواية للسخاوى تتصل كذلك بإدخال التقويم الهجرى[3] الذى أصبح عاملاً هاماً فى نشأة التاريخ عند المسلمين .

وكلمة تاريخ الغربية Histoire بالفرنسية و History بالإنجليزية و Geschichte بالألمانية. وأصل الكلمة الفرنسية هو كلمة Historia فى اللغة اليونانية ومعناها الفحص، والفرق بين العلوم التاريخية وبقية العلوم أن علم التاريخ لايمكن أن نرجع به إلى ماقبل الحوادث بخلاف بقية العلوم.[4]

---

(١) لسان العرب : مادة : تاريخ : جـ٣ .

(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : السخاوى : ص٥٠٩ ط روزنتال .

(٣) نفسه : ص٥٠٨ وسنعرض لذلك حين الحديث عن السخاوى .

(٤) لويس ماسينيون : محاضرات فى تاريخ الاصطلاحات الفلسفة العربية : تحقيق د . زينب خضيرى : منشورات المعهد العلمى الفرنسى - القاهرة : ص١٢٩ - ١٣٠.

إن كلمة (تاريخ) العربية تعنى كلاً من (الزمن) و (الحقبة) ومن الواضح أن هذه الكلمة لا تظهر فى الأدب الجاهلى، كما أنها غير مذكورة فى القرآن الكريم، ولافى الأحاديث النبوية، والحديث الوحيد الذى يشير إلى إدخال التقويم الإسلامى فى صحيح البخارى، يستعمل كلمة (عد) ولايستعمل "أرخ" والحديث هو "ماعدوا من بعث النبى ولامن وفاته ماعدوا إلا من مقدمة المدينة".

وكل الظواهر تدل على أن كلمة "تاريخ" استعملت لأول مرة فى الآداب العربية مع أخبار إدخال التقويم الهجرى، ثم اكتسبت كلمة "تاريخ" معنى "الكتب التاريخية" ثم معنى "تاريخ" بالمعنى الذى نقصده من كلمة History، وتطور معنى التاريخ عموماً باستعمال كتب الحوليات لهذه الكلمة، وبدأ استعمالها يعم ببطء منذ القرن الثالث فيما بعد .(١)

وقد أصبح الشائع حالياً التفريق بين كلمة التاريخ History كتعبير دال على مسيرة الإنسان الحضارية على سطح كوكب الأرض منذ الأزل، وعبارة تدوين التاريخ Historiagrophy كتعبير عن العملية الفكرية الإنشائية التى تحاول إعادة تسجيل وبناء وتفسير مسيرة الإنسان على كوكبه، وهذه العبارة تتضمن استخدام التاريخ

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين : ص٢٣ - ٢٤ .

بوصفه سجلاً للماضى، وبوصفه نظاماً تعليمياً أكاديمياً.[١]

وحول تعريف "الكافيجى" للتاريخ يقول : "التاريخ في اللغة هو تعريف الوقت، وفى العرف والاصطلاح هو تعيين وقت لينسب إليه زمان مطلقاً سواء كان قد مضى أو كان حاضراً أو سيأتى. وقيل التاريخ تعريف الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع كظهور ملة أو وقوع حادثة هائلة من طوفان أو زلزلة عظيمة ونحوها من الآيات السماوية والعلاقات الأرضية، وقيل التاريخ مدة معلومة بين حدوث أمر ظاهر وبين أوقات حوادث أخر"[٢] .

وفى موضع آخر يكرر نفس المعانى حيث يقول عن "علم التاريخ" "أما علم التاريخ فهو علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله وعن أحوال مايتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته والزمان فى اللغة هو الوقت، والوقت معروف عند القوم والميقات من الوقت، نقول وقته فلان إذاً بين للفعل وقتاً يفعل فيه قال تعالى "إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً" . النساء / ١٠٣ أى مفروضاً فى الأوقات، والتوقيت هو تحديد الأوقات تقول وقته ليوم كذا مثل أحلته."[٣]

---

(١) الرؤية الحضارية للتاريخ : ص٢٧ .

(٢) اعتمدنا على نص المخطوطة التى حققها روزنتال : وضمنها كتابه : علم التاريخ عند المسلمين : ص٣٢٦ ط١ : ١٩٦١ بغداد - مكتبة المثنى .

(٣) المختصر : ص٣٢٧ - ٣٢٨ .

ونستنتج من تعريف "الكافيجى" للتاريخ النقاط الآتية :

أولاً : أنه يبرز التعريف اللغوى للتاريخ، من حيث هو تعريف الوقت وهو ماتجمع عليه المعاجم اللغوية .

ثانياً : أنه يفرق بين التاريخ كأحداث والتاريخ كعلم .

ثالثاً : أهمية ارتباط علم التاريخ بالزمان .

ولعل أهم ماورد فى تعريف "الكافيجى" للتاريخ حديثه عن أهمية الزمان فى الفعل التاريخى وهو ماسنحاول إبراز أهميته من خلال التعريف السابق .

وفى تأكيد القرآن الكريم المستمر على فكرة "الزمن" وتقسيماته التى رسمت من أجل تمكين الإنسان من تأريخ أيامه فى الأرض، كان من بين الأسباب العديدة التى دفع الإسلام بها العرب إلى الاهتمام المتزايد بالدراسات التاريخية، ومكنهم - بعد عقود - قليلة - من تحويلها إلى علم له منهجه وأساليب بحثه، بعد أن لم يكن فى العصر الجاهلى سوى أقاصيص تغلب عليها الخرافة، وأسماء يسودها طابع المبالغة، وأيام ينظر فيها الراوى إلى الأحداث بمنظار القبيلة التى ينتمى إليها.(١) فلم يعد الزمان الماضى فى الحس الإسلامى - فناءً ضائعاً مع الأيام، يثير مشاعر الفقدان

---

(١) د . عماد الدين خليل : التفسير الإسلامى للتاريخ : دار العلم للملايين : بيروت : ط٢ : ١٩٧٨ : ص١٢٤ .

والحسرة على مامضى وفات، وصار فى إنتهاء تحققه خلو من حضور الفعل، أى نقصان فى الشعور الحى بالوجود كما عند الشاعر الجاهلى الذى وقف على الدمن والأطلال فبكى واستبكى واستشعر العجز المطلق أمام الزمان، وإنما صار لكل ماتم من الأفعال فى الماضى وجود ثابت حى محفوظ فى كتاب الأعمال ليوم الحساب.[1]

يقول تعالى "وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا" الإسراء ١٣ -١٤ "يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه" المجادلة / ٦ فالفعل الإنسانى فى إطار الزمان - وفق المفهوم الإسلامى - أصبح حاضراً في وعى الإنسان المسلم، بأن كل مايحقق من سلوكيات ترتبط بالزمان الدنيوى، فإنه يثاب عليها بقدر بعدها أو قربها من دائرة العمل الصالح الذى تحدده رسالة المسلم فى الحياة أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر يقول تعالى "لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم". الحديد / ٢٣.

فالحياة الدنيا (فعل) تاريخي مستمر يتشكل من الماضى والحاضر ويرتبط بمستقبل يوم الحساب الذى هو بمثابة المصير النهائى

---

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية : ص٢٥٧ .

لفاعلية الإنسان فى العالم، ولهذا يقوم لنا القرآن الكريم وصفاً رائعاً، يتميز بالحيوية والتدفق لمجرى التاريخ البشرى، وبهذا التوافق بين الماضى والحاضر والمستقبل ينقلنا بيسر وإبداع بين الآونات الثلاث حيث تذوب الفواصل والحواجز وتسقط الجدران حتى يؤتى الفعل التاريخى ثماره ونتائجه الفعاله .(١)

وإذا حاولنا أن نتلمس أبعاد المسألة الزمنية فى القرآن، سنجد أنها متعددة الأبعاد والمساحات، بحيث ندرك من خلالها الأهمية الكبرى التى أولاها الإسلام لعنصر الزمان ودوره فى حركة الحضارة.

والأمثلة تطول وحسبنا التلميح ...

يقول تعالى : "قال كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم" البقرة ٢٥٩ .

ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار" يونس / ٤٥

"وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون" الحج / ٤٧ . (٢)

والحقيقة أن الوعى بالزمان وعى بالتاريخ، ذلك لأن التاريخ تجسيد للزمان وتصوير له فى حيويته .

---

(١) التفسير الإسلامى للتاريخ : ص١٢٤

(٢) وكذلك ينظر: الإسراء/ ٥٢ المؤمنين/ ١١٣ والروم/ ٥٥ والرحمن/ ٢٩ وطه/١٠٤ والسجدة / ٥ والنازعات / ٤٦ والأعراف / ٥٤ .

والتاريخ علم متزمن، أى علم يتصل بالزمن أساساً، بل إن الزمن هو التاريخ فى أحد معانيه، ولكل حادثة تاريخية مكانها الزمانى بين الأزل والأبد، وهى ثابتة فى موقعها الزمنى، على حين يمضى الزمن فى صيرورته الدائمة بين الماضى والحاضر والمستقبل.[1]

وللقرآن منهاجه فى إحياء الوعى بالتاريخ وهو فى نفس الوقت وعى بالعملية الحضارية، وتزكية الوعى الحضارى - عن طريق الزمان - الهدف منه ، حضور الإحساس بالزمان - أى بالتاريخ - إحساساً حياً كوحدة واحدة تجمع فى أصرة حيوية آناث الزمان الثلاث، الماضى والحاضر والمستقبل، وذلك في ترابط منطقى وتكامل حتمى يؤكد الاستمرارية الحضارية لمجتمع من المجتمعات فى إطار خصوصية الذاتية الفكرية والثقافية التى تحكم وتوجه مسار هذا الكيان الحضارى فى التاريخ .

وعن قيمة الزمان فى المعادلة الحضارية يحدثنا "مالك بن بنى" قائلاً "إن الزمن يمر من خلال المدن، يغذى نشاطها بطاقته الأبدية، أو يذلل نومها بأنشودة الساعات التى تذهب هباء، وهو يتدفق على السواء فى أرض كل شعب ومجال كل فرد، وهو فى مجال مايصير

---

(١) الرؤية الحضارية للتاريخ : ص٣٠ .

ثروة، وفى مجال آخر يتحول عدماً، فهو يمر خلال الحياة ويصب في التاريخ تلك القيم التى منحتها له الأعمال التى أنجزت فيه، والزمن هو جوهر الحياة الذى لايقدر، ولاتستطيع أى قوة في العالم أن تحطم دقيقة، ولاأن تستعيدها إذا مضت.(١)

ولعلنا لانبالغ إذا قلنا إن "الكافيجى" قد آثار معظم القضايا التى تعرضنا لها فى الحديث عن أهمية مفهوم الزمان وعلاقته بالمسألة التاريخية .

ومن حيث الاصطلاح يشير "الكافيجى" إلى نسبية الاصطلاح بين الناس مستشهداً بالآيات القرآنية، ومنتهياً بأهمية الرجوع إلى الحق (الإسلام) .

يقول "ولكل واحدٍ من هذه الاصطلاحات وجه وجيه فاختر منها ماكان أحلى عندك وأولى، فعلم من هذا أن التاريخ فى الاصطلاح لفظ مشترك كاشتراك العين بين معانيها، ولاحجر عن ذلك إذ كل واحد له أن يصطلح على مايشاء كيف يشاء، بغرض صحيح احترازاً عن العبث، يقول تعالى "كل حزب بما لديهم فرحون" الروم / ٣٢ "قد علم كل أناس مشربهم" البقرة / ٦٠ "قل كل يعمل على شاكلتـه" الإسـراء / ٨٤ ومن هـذا القبيل نحن بما عندنا وأنت بمـا

---

(١) مالك بن بنى : شروط النهضة : ص١٣٩ - ١٤٠ : دمشق : دار الفكر .

عندك راض، والرأى مختلف لكى ينبغى لعاقل أن يتبع الحق ولايتبع الهوى لقوله تعالى "الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه" الزمر / ١٨ كما قال تعالى "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه" الجاثية / ٢٣ والحاصل أن الحق أحق بأن يتبع، والصدق جدير بأن يستمع، وهذا ثابت بالأدلة الشرعية وبالاستدلال العقلى أيضاً". (١)

وعندما يتساءل الكافيجى عن الفرق بين التاريخ اللغوى والتاريخ الاصطلاحى فيقول : "الفرق بينهما بالعموم والخصوص فاللغوى أعم من التاريخ الاصطلاحى عموم الحيوان من الإنسان" (٢).

وعن تعريفه للزمان فى العرف يقول "الكافيجى" "الزمان فى العرف هو مقدار الحركة على الرأى المشهور، وهو الذى يحتاج إلى معرفته أهل التاريخ، وقيل الزمان فى العرف هو أمر متجدد يتقدر به متجدد" (٣).

ثم يعرض "الكافيجى" بالتفصيل للفرق بين السنتين الشمسية والقمرية، وعن الشهر والليل والنهار والساعات. (٤)

---

(١) المختصر : ص٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٢) نفسه : ص٣٢٧ .

(٣) المختصر : ص٣٢٨ .

(٤) نفسه : ص٣٢٨ - ٣٣٠ .

ثم يعرض أيضاً لتعريف التاريخ من خلال استخدام الفرس للفظة تاريخ حيث اعتمد البعض على رواية فى نشأة التقويم الإسلامى تقول إن أبا موسى الأشعرى كتب إلى عمر رضى الله تعالى عنه يقول : "إنا قد قرأنا صكاً من الكتب التى تأتينا من قبل أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه، وكان محل شعبان فما تدرى أى الشعبانين هو : الماضى أو الآتى ؟ فجمع أعيان الصحابة واستشارهم فيما تضبط به الأوقات، وكان فيهم ملك أهواز اسمه الهرمزان، وقد أسلم على يده حين أسر، فقال له : إن لنا حساباً نسميه "ماه روز" أى حساب الشهور والأعوام، وشرح كيفية استعماله، فأمر عمر بوضع التاريخ، فاستقر رأيهم على تعيين يوم من أيامه عليه الصلاة والسلام لذلك .. فجعل مبدأ الهجرة من مكة إلى المدينة إذ بها ظهرت دولة الإسلام[1] وإذا صحت هذه الرواية فى تعليل نشأة التقويم الهجرى عند المسلمين، فلايقتض ذلك بالضرورة علاقة لغوية متكلفة وغير واضحة بين "ماه روز" الفارسية و "مؤرخ" العربية.[2]

---

(١) الرواية بالتفصيل بالمختصر : ص٣٣٠ - ٣٣١ وكذلك كشاف اصطلاحات الفنون : جـ١ : ص٨٣ .

(٢) فلسفة الحضارة الإسلامية : ص٣١٩ .

فوائد التاريخ :

بينا أن "التاريخ" فرع من فروع العلم فى الخطاب الفكرى للتراث الإسلامى، وقد صنفه العلماء الذين كتبوا فى مراتب العلوم ضمن العلوم التى تخدم الشريعة الإسلامية، حيث جعل "الخوارزمى" علم الأخبار من العلوم الملحقة بعلوم الشريعة.(١)

وفى ذلك يقول "الكافيجى" فإن من جملة العلوم النافعة فى المبدأ والمعاد، ومابينهما علم التاريخ، الذى فوائده وغرائبه لاتعد ولاتحصى، وهو بحر الدرر، لايحيط بمنافعه نطاق التحديد والتبيان وفيه عجائب الملك والملكوت، وفيه إيصال إلى جناب الحق ذى العظمة والجبروت"(٢) أبرز لنا "الكافيجى" فى هذا النص المعانى الآتية فى فوائد التاريخ :

إن التاريخ من العلوم النافعة، ليس فقط من خلال الزمن الماضى، ولكن منذ بدء الخليقة وحتى تقوم الساعة، وإن المرء من فرط الفوائد العظيمة لهذا العلم لايستطيع أن يحصيها، ولكن أهم هذه الفوائد التعرف على حقيقة الذات الإلهية، وقدرة الحق الأعلى، وبذلك يصبح التاريخ وسيلة من وسائل التربية العقائدية .

---

(١) الخوارزمى : مفاتيح العلوم : ص٤ - ٥ .

(٢) المختصر : ص٣٢٥ .

وفى نص آخر يقول "وفيه فوائد لاتحصى، منها إحاطة تلك الحوادث الجزئية على وجه معتبر بهذا العلم الشريف، ولولاه لكان الخائض فيها يتكلم كيف مااتفق، بلا تمييز بين صحيح وفاسد، وتخبط فيها خبط عشواء، فيكون كحاطب ليل، فيكون هذا العلم قانوناً لها، وميزاناً ومعياراً ومكيالاً لها، فإذا اتزنت بهذا الميزان تكون صحيحة العيار، معتبرة لدى أولى الأبصار والأفكار، وكل واحد من العلوم المدونة كالفقه والأصول والنحو والبيان إلى غير ذلك بمثل هذه المثابة التى ذكرتها إذ ليس واحد فيها يفيد جزئياً واحداً بخصوص، ولمثل ماذكرته ههنا ترى خطاب الله تعالى مع عباده على وجه العموم"[1] .

ويبين لنا النص السابق العديد من الفوائد التى نجنيها من دراستنا للتاريخ من أهمها، أهمية التعرف على الوقائع والحوادث الجزئية، لأن هذا التعرف هو أساس البحث التاريخى الذى يجب أن يبدأ من الواقعة الجزئية صعوداً إلى التحليل الحضارى لسلسلة من الوقائع التى ترتبط فى الزمان والمكان بحيث تبرز لنا فى نهاية الأمر الفهم الموضوعى لحركة هذه الوقائع ومساراتها فى إطارها الحضارى ويضيف "الكافيجى" إن عدم التعرف على هذه الوقائع الجزئية يحيل البحث التاريخى إلى جهد متخبط وعشوائى مشبهاً صاحبه بالحطاب الـذى يمارس عمله فى الظلام، والذى لايجنى شيئـاً

---

(١) المختصر : ص٣٣٥ .

من عمله لأنه عدم الشروط الموضوعية لنجاح عمله، وكذلك المؤرخ والمفكر التاريخى .

هذا بالإضافة إلى خضوع العلوم الأخرى لمثل هذا المنهج الذى يبرزه "الكافيجى" بحيث يصبح من الضرورى وقوف كل علم عند المسائل والأمور الجزئية التى تشكل فى نهاية الأمر حقيقة هذا العلم وتبين أدواته ووسائله، وصولاً إلى غاياته وفهم مسائله .

ونحن لسنا فى حاجة إلى كثير قول لنعدد الفوائد التى نجنيها من دراسة التاريخ، فهذا أمر واضح للعيان، ولايحتاج إلى كثير بيان، ويكفى أنه يستخدم كأداة لتوجيه الشعوب وتربية الأفراد تربية تخضع للتوجه العقدى والفكرى الذى يحكم النسق الحضارى لكل مجتمع من المجتمعات، ويكفى فى هذا الصدد أن جُل المذاهب الفكرية فى فلسفة التاريخ والحضارة تحاول جاهدة إيجاد سند لمصداقية نظرياتها من خلال أحداث التاريخ ووقائعه، ونذكر هنا على سبيل المثال فى إطار الحضارة الإسلامية، البيرونى وابن حزم ومسكويه وابن خلدون، وفى الإطار الغربى نذكر توينبى وشبنجلر وسوروكين وغيرهم .

ولعل فى نص "الكافيجى" حول موضوع التاريخ، مايبرز لنا الغاية العملية من دراسة التاريخ، بحيث تحقق دراسة التاريخ

وظيفتها الحضارية فى ترقية وتنمية الوعى الحضارى للإنسان، لأن الوعى بالتاريخ هو وعى بالحضارة فى نفس الوقت .

موضوع التاريخ : يقول "الكافيجى" : "أمور حادثة غريبة لاتخلو من مصالح وترغيب وتحذير وتنشيط وتثبيط ونصح واعتبار وبسط وانفعال، بحيث يلاحظ فيها ضبطها بتحرير تحديد وتقرير تعيين وتوقيت لغرض صحيح فى ذلك كوقائع متعلقة بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى "لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ماكان حديثاً يفترى، ولكن تصديق الذى بين يديه، وتفصيل كل شىء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" يوسف / ١١١ وقوله تعالى : "نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن" يوسف / ٣ وكسائر حوادث من الأمور السماوية والأرضية من حدوث ملة وظهور دولة وزلزلة وطوفان وموتان إلى غير ذلك من الحوادث الصائلة[١] العظام والأمور الهائلة الجسام"[٢] .

إن الآية الكريمة التى تعرض لها "الكافيجى" فى معرض الحديث عن "موضوع التاريخ" من سورة "يوسف" تبرز لنا صورة لأهم

---

(١) الصائلة : تعنى : المواثبة والتطاول : لسان العرب : مادة صول .

(٢) المختصر : ص٣٣٢ .

الموضوعات التى يدرسها التاريخ، وفى تفسير هذه الآية يقول ابن كثير فى تفسيره "يقول تعالى لقد كان فى خبر المرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين، وماكان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أى يكذب ويختلق (ولكن تصديق الذى بين يديه) أى من الكتب المنزلة من السماء هو يصدق مافيها من الصحيح وينفى ماوقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير (وتفصيل كل شىء)[1] من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات والنهى عن المحرمات وماشاكلها من المكروهات والإخبار عن الأمور الجلية وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية والإخبار عن الرب تبارك وتعالى"[2] .

وفى معرض المقارنة بين علم "التاريخ" والعلوم الأخرى، يقارن "الكافيجى" بينه وبين "علم الكلام" ، مؤكداً على أن موضوعه - أى "علم الكلام" - لا يخص ميدان علم التاريخ فيقول : "علم الكلام هو الباحث عن ذات البارى جل ذكره، وعن صفاته، وعما يتعلق بذلك فليس للمؤرخ التعرض لذلك ههنا من جهة بحث علم الكـلام، كما لايكـون له التعـرض لمباحث الفقه والأصـول ولسائر العلوم، لكونه خارجاً عما هو بصدده، نعم يجوز له التعرض له من حيث التحديد والتوقيت لو احتاج إليه"[3] .

---

(١) وهذا مايهم التاريخ .

(٢) تفسير ابن كثير : جـ٢ ص٤٩٨ : جـ٢ جـ١ عيسى الحلبى .

(٣) المختصر : ص٣٣٧ .

فى هذا النص تبرز منهجية "الكافيجى" فى تقديره لخصوصية كل علم وتحديد مجاله، مع إبراز إمكانية استعانة العلوم ببعضها وفق إطار محدد لايلغى خصوصية هذا العلم أو ذاك، بالإضافة إلى ضرورة تحرى الموضوعية حين التعرض لذلك .

وهذه سمة من سمات البيئة الفكرية التى نشأ خلالها العقل المسلم فى نظرته للعلوم، وهى تنطوى على عدد من خصائص الموروث الفكرى الإسلامى نذكر منها :

١ - تعدد وتنوع العلوم والمعارف التي أفرزتها الحضارة الإسلامية.
٢ - لكل علم أدواته ومناهجه وموضوعاته التى تميزه عما عداه .
٣ - هذا التعدد وذلك التنوع يشكلان فى نهاية الأمر تراكماً معرفياً، يبرز إمكانية التعاون والتآزر بين كافة العلوم والمعارف مما يترك آثاراً واضحة على المسار الفكرى لحركة هذه الحضارة .

أهداف المؤرخ : وفى بيان أن لكل حادثة تاريخية أكثر من وجه للتناول، يحدد "الكافيجى" فى البداية مقصود -أى- هدف المؤرخ الذى يقسمه إلى نوعين فيقول "مقصود المؤرخ نوعان، نوع مقصود أصلاً وبالفرض، ونوع مقصود تبعاً وبالعرض، والنوع الأصلى ههنا فهو، ضبط الإنسان على وجه معتبر، وللإنسان

طبقات ومراتب ثلاث، عليا ووسطى وسفلى، والطبقة العليا هى طبقة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، والطبقة الوسطى هى طبقة الأولياء والمجتهدين والأبرار، والطبقة السفلى طبقة من عداهما، ووجه أنصار عدد هذه الطبقات فى الثلاث ظاهر بأدنى فكر وتأمل"[1] فإذا كان "الكافيجى" يحدد المقصود من دراسة التاريخ "ضبط الإنسان على وجه معتبر" فقد أصاب فى تحديد أهم الأهداف التى يهتم بها البحث التاريخى على اعتبار أن الإنسان هو السند المحسوس لوجهة التاريخ فى مجتمع ما ، فى فترة زمنية محددة، وبما أن الإنسان هو الشرط الأساسى لكل حضارة، وأن الحضارة تؤكد دائماً الشرط الإنسانى، فالإنسان إذن هو محور الفاعلية فى حركة التاريخ .

وتبرز هذه الفكرة أثر البيئة الثقافية على المؤرخ المسلم حين يحدد الهدف من البحث التاريخى، "بضبط الإنسان" ، أى بيان حقيقة الإنسان ككائن متفرد، استخلفه الحق سبحانه لعمارة الكون والحياة وفق قيم الحق والخير والعدل، وفى إطار السنن التى تحكم حركة التاريخ والتى من أهمها الوقوف عند الإنسان كقيمة جوهرية فى البحث التاريخى والفعل التاريخى .

---

(١) المختصر : ص٣٣٨ .

ثم يبين لنا "الكافيجى" المنهج الذى ينبغى أن يتبعه المؤرخ حين يؤرخ لهذه الطبقات لواحدٍ منها فيقول "فإذا أراد المؤرخ تأريخ واحد بعينه من كل واحدة من هذه الطبقات كآدم عليه السلام، مثلاً يحصل له حينئذ عنده اعتبارات ممكنة عقلاً، وحالات محتملة، سواء كانت واقعة فى الأمر نفسه أو ليست بواقعة، وسواء كانت ممكنة الإجتماع فى الواقع أولاً. ومثل ذلك جائز شرعاً وعقلاً وعرفاً، وعادة وطبعاً لغرض من الأغراض، والكتب مشحونة بذلك، ويقع ذلك كثيراً فى المحاورة، والمناظرة . قال تعالى "قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين" الزخرف / ٨١ [١] .

ثم يعدد "الكافيجى" عدد من الاعتبارات الحاصلة عند قصد تاريخ واحد بعينه :

أولاً : اعتبار وجه الحضور والعيان، وهو أحسن الوجوه، يقول تعالى عن حكاية الخليل صلوات الله عليه "ولكن ليطمئن قلبى" البقرة / ٢٦٠ وفى قوله تعالى عن موسى عليه السلام : "رب أرنى انظر إليك قال لن ترانى" الأعراف / ١٤٣ .

ويؤكد "الكافيجى" على أهمية عنصر المشاهدة والرؤية المباشرة فى التعامل مع الحادثة التاريخية حيث يذكر المؤرخ بأهميـة

---

(١) المختصر : ص٣٣٩ .

هذا المنهج لما له من مزايا عملية فيقول : "وأراد المؤرخ تاريخ صاحب هذا الوجه، فينبغى أن يعتنى بتاريخه غاية الإعتناء، إغتناماً بالفرصة بهذه النعمة العظيمة النفيسة، وابتهاجاً بهذه المرتبة الشريفة اللطيفة، فكيف لا وفيه مصالح وعبرة لأولى الألباب، قال تعالى : "وفى ذلك فليتنافس المتنافسون" المطففين / ٢٦ كما قال تعالى : "لمثل هذا فليعمل العاملون" الصافات / ٦١ وبعد درجة الرؤية المباشرة وواقعية المشاهدة يتحدث عن الاعتبار الثانى، وهو اعتبار وجه العلم واليقين فيقول : "وإذا حصل له عند قصد تاريخ صاحب هذا الوجه فينبغى أن يؤرخه على أحسن مايكون لما فيه من المصالح والتنشيط والعبر إلى غير ذلك من سائر النصائح"(١).

والاعتبار الثالث : اعتبار وجه غلبة الظن، إذا حصل له عند قصد تاريخ صاحبه فهو يؤرخه أيضاً لما فيه من الإعتبار، وسائر المصالح النافعة فى أمر الدين ...

والإعتبار الرابع : اعتبار وجه تعارض بلا ترجيح، ويؤرخ صاحبه مع تنبيه على وقوع الاختلاف فيه بلا جزم، بأحد طرفين مالم يتحقق فيه مرجح لأحد جانبين على الآخر" (٢).

---

(١) المختصر : ص٣٤١ .

(٢) المختصر : ص٣٤١ .

والإعتبار الخامس : اعتبار وجه غير الوجوه الأربعة، وهذا الوجه ينبغى ألا يؤرخه، بل يسكت عنه، لايتكلم فيه ببنت شفه، لابالنفى ولا بالإثبات، قال تعالى : "والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله" إبراهيم/ ٩ ولقول النبى ﷺ "دع مايريبك إلى مالايريبك"(١).

شروط المؤرخ :

يشرع "الكافيجى" فى بيان أهم الشروط التي يجب أن تتوافر فى شخصية المؤرخ الذى يضطلع بمهمة الكتابة التاريخية وتسجيل الحوادث والوقائع والحكم عليها فيقول "ينبغى أن يشترط فى المؤرخ مايشترط فى راوى الحديث من أربعة أمور، العقل والضبط والإسلام والعدالة، ليكون كل واحد منهما معتمداً فى أمر الدين وأمنياً فيه، ولتزداد الرغبة فى تاريخه، وللاحتراز عن المجازفة والإفتيات، فيحصل له إلا من الوقوع فى الضلالة والإضلال".(٢)

والمتأمل للشروط التى وضعها "الكافيجى" للمؤرخ، يجد أنها - وكما أورد فى النص - نفسه الشروط الواجب توافرها في راوى الحديث حيث يقول "ابن الصلاح" "أجمع جماهير أئمة الحديث والفقه على أنه يشترط فيمن يحتج بروايته أن يكون عدلاً ضابطاً لما يرويه، وتفصيله أن يكون مسلماً بالغاً عاقلاً سالماً من أسباب الفسق

---

(١) المختصر : ص٣٤٢ : والحديث رواه أحمد فى مسنده : ٣٦ / ٥٠ .

(٢) نفسه : ص٣٣٦ .

وخوارم المروءة، متيقظاً غير مغفل حافظاً إن حدث من حفظه، ضابطاً لكتابه إن حدث من كتابه، وإن كان يحدث بالمعنى اشترط فيه مع ذلك أن يكون عالماً بما يحيل المعانى". (١)

ويتساءل "الكافيجى" "فإن قلت ، فهل يجوز له - أى للمؤرخ - أن يروى فى تاريخه قولاً ضعيفاً ؟ قلت نعم، يجوز له ذلك فى باب الترغيب والترهيب والاعتبار، مع التنبيه على ضعفه، لكنه لايجوز له ذلك فى ذات البارىء عز وجل، وفى صفاته، ولافى الأحكام، وهكذا جواز رواية الحديث الضعيف على ماذكر من التفصيل المذكور". (٢)

والحقيقة أن العلماء الذين أجازوا رواية الضعيف بشروطه، وبعبارة الأقدمين منهم، تساهلوا فى أسانيد رواته، إنما قصدوا بذلك الحث على عمل صالح ثبت صلاحه بالأدلة الشرعية المعتبرة، والزجر عن عمل سيىء ثبت سوءه بالأدلة الشرعية، ولم يقصدوا، أن يثبتوا بالحديث الضعيف صلاح العمل أو سوءه، ولكن كثيراً من عامة الناس - بل من المحدثين أنفسهم - لم يفرقوا بين جواز رواية الضعيف بشروطه وإثبات العمل به .

---

(١) الحافظ العراقى : التقييد والإيضاح فى شرح مقدمة ابن الصلاح : السعودية : المدينة : المكتبة السلفية : ط ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ .

(٢) المختصر فى علم التاريخ : ص٣٣٧ .

وكثير من المفاهيم المغلوطة فى واقعنا المعاصر، ترجع إلى أحاديث ضعيفة، راجت فى عصور التخلف، وتمكنت من العقول، وطاردت الأحاديث الصحاح التى يجب أن تكون - بجواز القرآن الكريم أساس الفهم والسلوك، وإذ أخذنا برأى الجمهور فى جواز رواية الضعيف فى الترغيب والترهيب، فينبغى أن نضيف إليهما شرطين لذلك :

١ - ألا يشتمل على مبالغات وتهويلات يمجها العقل والشرع واللغة، وقد نص أئمة الحديث أنفسهم أن الحديث الموضوع يعرف بقرائن فى الراوى والمروى .

٢ - ألا تعارض دليلاً شرعياً آخر أقوى منها .(١)

وحول موقف الرسول ﷺ من الكذب فى الرواية، يقول "الغزالى" فى الإحياء "قال ﷺ "ماحدث أحدكم قوماً بحديث لايفقهونه إلا كان فتنة عليهم"(٢) وقال ﷺ "كلموا الناس بما يعرفونه ودعوا ماينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله"(٣) وهذا

---

(١) د . يوسف القرضاوى : كيف تتعامل مع السنة النبوية : الوفاء : ط٢ : ١١٤١ هـ ص٧٨ - ٨٣ القاهرة .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه : بمقدمته موقوفاً على ابن مسعود .

(٣) رواه البخارى موقوفاً على على ، ورفعه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس عن طريق أبى نعيم .

فيما يفهم صاحبه ولايبلغه عقل المستمع، فكيف فيما لايفهمه قائله، فإن كان يفهم القائل دون المستمع فلا يحل ذكره، ومن وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم إن للحكمة حقاً، وإن لها أهلاً، فاعط كل ذى حق حقه.[1]

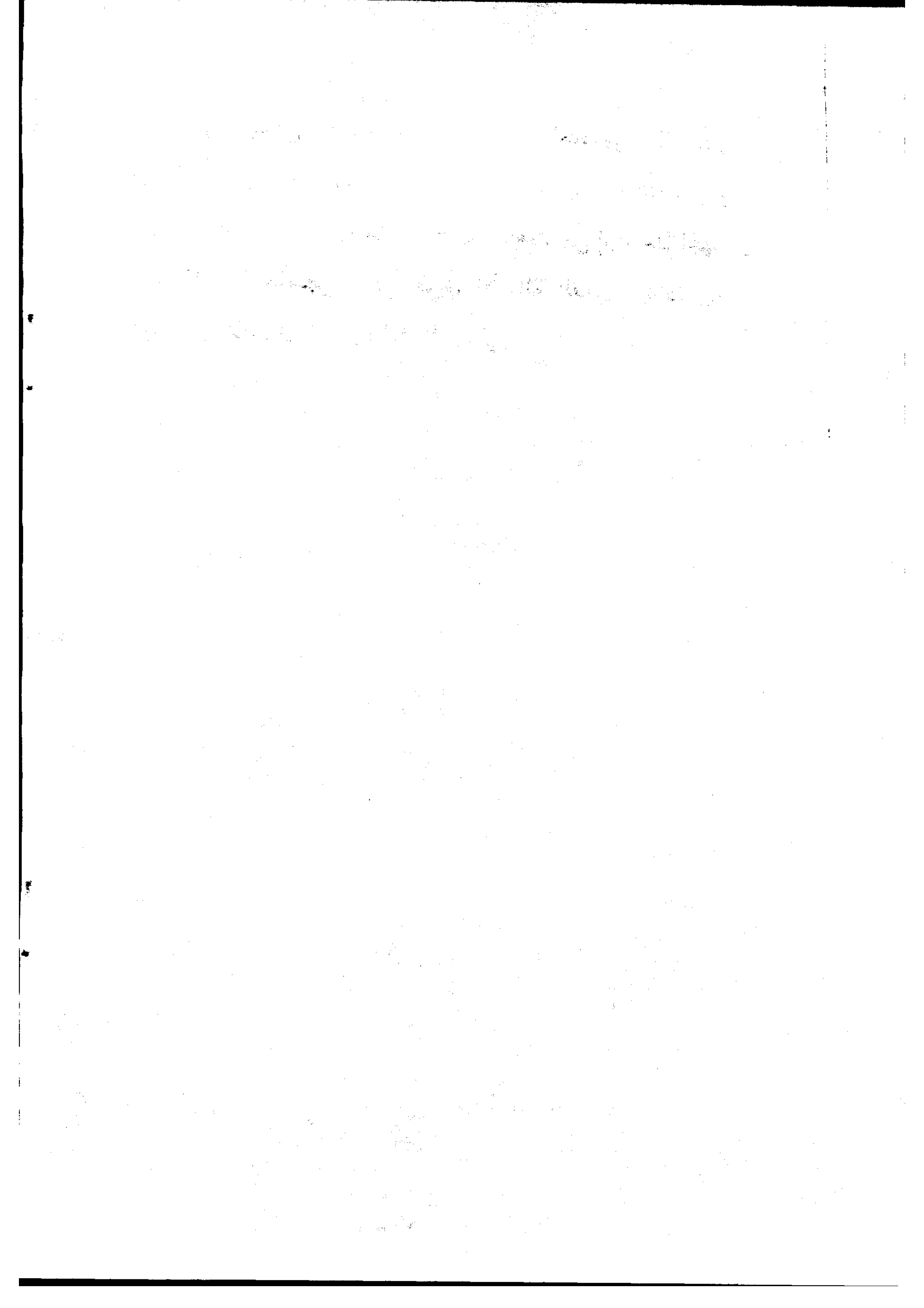
وبالتالى لايجوز للمؤرخ أن يروى فى تاريخه قولاً ضعيفاً، كما يقول "الكافيجى" ، لما يترتب على ذلك من نتائج تؤثر بصورة سلبية على إيجابية الفعل التاريخى .

وبعد أن أبرز لنا "الكافيجى" أهم الاعتبارات التى ينبغى أن يضطلع بها منهج المؤرخ وهى : عنصر المشاهدة، والحضور العيانى للواقعة، والعلم واليقين، والثالث غلبة الظن، والرابع اعتبار وجه التعارض بلا ترجيح، والآخير عندما يستحيل اليقين بمعرفة الواقعة وحقيقتها حيث يتحتم على المؤرخ السكوت خيراً من الرجم بالغيب، بعد ذلك يشرع فى إيضاح القواعد والأصول التى قررها حول منهج الكتابة التاريخية من خلال مايتعلق بها من رجال الطبقات الثلاث، الحيوان والنبات والمعدن، ويبدأ فى تطبيق منهجه التاريخى على الرسل والأنبياء .

---

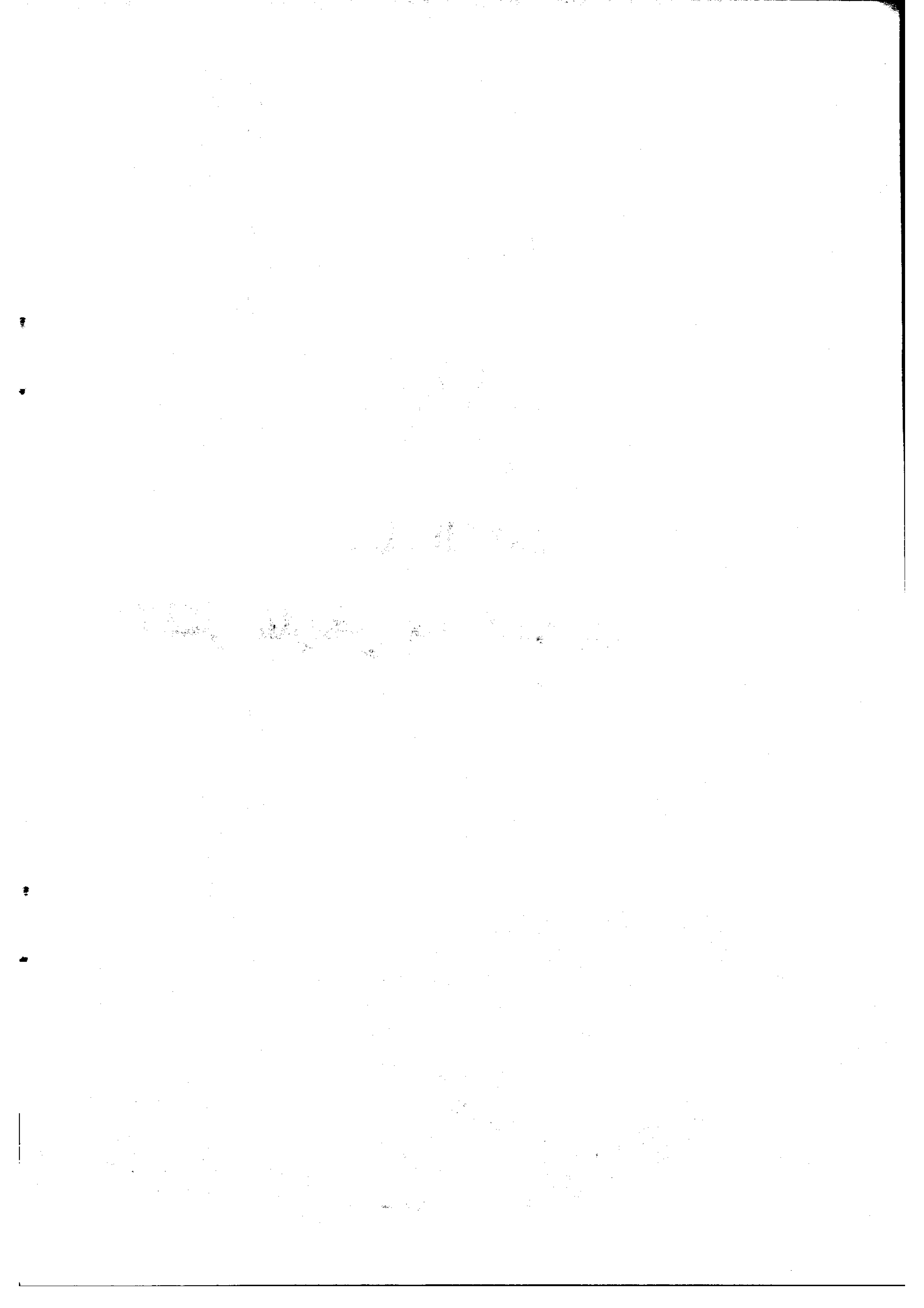
(١) إحياء علوم الدين : ج١ : ٣٦ - ٣٧ : جـ١ التجارية .

وبذلك ينتهى القسم النظرى من كتاب "الكافيجى" "المختصر فى علم التاريخ" وهو ماأردنا الوقوف عنده لبيان رؤية هذا المؤرخ لمنهج الكتابة التاريخية، ولعلنا بذلك قد ساهمنا فى إبراز هذا الجهد الذى قدمه "الكافيجى" على طريق الأصالة الفكرية والحضارية لتراثنا الإسلامى فى ميدان الفكر التاريخى .



الفصل الثالث

الفكر التاريخى عند السخاوى



السخاوى وعلم التاريخ

من هو السخاوى ؟ هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان بن محمد، الملقب شمس الدين أبو الخير، وأبو عبد الله بن الزين، أو الجلال أبى الفضل، وأبى محمد السخاوى القاهرى، الشافعى، المصنف.(١)

وقد ولد فى ٨٣١ هـ وتوفى فى ٩٠٢ هـ(٢)

وهو مؤرخ حجة، عالم بالحد يث والتفسير والأدب، أصله من سخا (من قرى مصر) مولده فى القاهرة ووفاته بالمدينة، ساح فى البلدان سياحة طويلة، وصنف زهاء مئتى كتاب أشهرها "الضوء اللامع فى أعيان القرى التاسع" إثنا عشر جزءاً، ترجم لنفسه فيه بثلاثين صفة وله "شرح ألفية العراق" فى مصطلح الحديث، "القول البديع فى أحكام الصلاة على الحبيب الشفيع" و "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ"، و "سفر السعادة" و "التبر المسبوك" و "وجيز الكلام

---

(١) ينظر فى الترجمة عن السخاوى : الإعلام للزركلى ٧ /٦٨ والضوء اللامع جـ٨ ص٢ - ٣٢ والكواكب السائرة ٥٣/١ وشذرات الذهب ١٥/٨ وخطط مبارك ١٥/١٢ وابن إياس ٣٢١/٢ .

وفى ←――― Brock : 2 - 43 and v : 5 : 2 .

(٢) ينظر أيضاً : مداخل المؤلفين والإعلام العرب : إعداد محسن السيد الغرينى - منشورات جامعة الرياض ١٩٨٠ .

فى الذيل على كتاب الذهبى دول الإسلام" و "الجواهر والدرر فى ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى" و "الجواهر المجموعة" و"التحفة اللطيفة فى اخبار المدينة الشريفة"، و "بغية العلماء والرواة" و "الغاية فى شرح الهداية" و "عمدة القارىء والسامع" فى الحديث" و "الشافى من الألم فى وفيات الأمم" و "تاريخ المدينتين" و"التاريخ المحيط" و "طبقات المالكية" وتلخيص تاريخ اليمن" و"تلخيص طبقات القراء" و "الرحلة السكندرية" و "الرحلة الحلبية" و"الرحلة المكية" .[1]

وقد أخذ العلم عن جماعة لايحصون، يزيدون على أربعمائة نفس، وأذن له غير واحد بالإفتاء والتدريس والإملاء، وسمع الكثير على شيخه الحافظ ابن حجر العسقلانى، ولازمه أشد الملازمة، حمل عنه عند مالم يشاركه فيه غيره وأخذ عنه أكثر تصانيفه.[2]

وحديثنا عن أهمية السخاوى فى الفكر التاريخي الإسلامى، نعتمد فيـه على كتابه "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ"، الذى أجمعت كل المصادر التاريخية على نسبته إليه، ويكفينا فى ترجمة السخـاوى عن نفسه فى كتابـه "الضوء اللامع" حيث ترجـم لنفسـه

---

(١) الاعلام للزركلى : ٦٨/٧ .

(٢) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى إخبار من ذهب : ط١ : بيروت : المكتب التجارى .

بثلاثين صفحة (٨ : ٢ - ٣٢) وذكر ضمنها تأليفه لـ "الإعلان بالتوبيخ.." ويقول روزنتال عن الكتاب، الكتاب كما يدل عليه العنوان، كان ذا صفة اعتذارية وقد كتب للدفاع عن دراسة التأريخ كموضوع ثقافى مساعد فى مناهج الدراسة الدينية، والواقع أن هذا الكتاب كتب من وجهة نظر العلوم الدينية، غير أنه فى الوقت نفسه كتبه رجل مفعم بالحماس لجمع التفاصيل، والذى يمثل نهاية حقبة عظيمة من البحث فى معضلات كتباة التاريخ، وقد كانت نتيجته كتاباً يكون عرضاً شاملاً وأحياناً رائعاً لعلم التاريخ الإسلامى.[١]

علاقة السخاوى بالكافيجى : اعتبر "السخاوى" أن "الكافيجى" ممن تأثر بعلمهم كما أورد ذلك فى كتابة "الضوء اللامع".[٢]

مايجمع ابن خلدون والسخاوى والكافيجى : لايجمع بين الثلاثة اشتراكهم فى الاهتمام بالنواحى النظرية والمنهجية المرتبطة بالفكر التاريخى، فى مقابل المناهج التى تقف عند التأريخ دون التنظير - فقط - وإنما يجمع بينهم أن كل منهم قد خصص كتاباً مباشراً يبلور فيه رؤيته النظرية والتحليلية للتاريخ، حيث تفرد

---

(١) روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين : ص٣٧١ - ٣٧٢ .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع : جـ٨ ص٢٦ : مكتبة القدسى - القاهرة - ١٣٥٤ هـ .

ابن خلدون بمقدمته، والكافيجى بالمختصر فى علم التاريخ، والسخاوى بالإعلان بالتوبيخ .

محتوى الإعلان بالتوبيخ : يتناول الكتاب علم التاريخ، فيبدأ بتعريفه فى اللغة والإصطلاح، ثم يبين موضوع الدراسة التاريخية، وكيف أنه يتمثل فى "الإنسان" و "الزمان" ويوضح مسائله التى تشمل "أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفى الزمان" ، وبعد ذلك يأخذ فى تعداد فوائد علم التاريخ، ويبين الغاية والهدف منه، ويحدد حكم دراسة التاريخ وهل هى: واجبة، أم مستحبة، أم مباحة؟ ويذكر الأدلة على أهمية من الكتاب والسنة وغيرهما، ثم ينتقد منتقدى علم التاريخ والمنقصين من أهميته، وعندئذ يعدد الشروط التى يجب توافرها فى المؤرخ، ثم يتعرض لأول من أرخ التاريخ، ويذكر الاختلافات بين العلماء حول هذه المسألة، ثم يبين القول الراجح، ويتحدث عن فنون التاريخ بالإعتماد على ماتوصل إليه الذهبى فى هذا الصدد، ثم يعدد المؤلفات التى صنفت فى التاريخ، وأنواعها ومقاصدها، وأسماء مؤلفيها، ثم يورد قائمة بأسماء أهم المؤرخين مرتبة ترتيباً أبجدياً، وينهى الكتاب بالحديث عن المتكلمين فى الرجال، أى المنتقدين لهم إيجاباً وسلباً، أو بمصطلح علم الحديث، علماء الجرح والتعديل، ويذكر الأهم منهم ويصرح بأنه لم يقصد إلى استيعابهم وحصرهم .

ونمضى الآن لإبراز أهم القضايا المنهجية التى تبرز منهج "السخاوى" فى تناول علم التاريخ .

وهنا لابد من ملاحظة الفرق بين نوعين من دلالة لفظة "منهج" وتحديد المراد بها، فقد تطلق ويراد بها التصورات والقيم والمبادىء التى يلتزمها الباحث، كما تطلق ويقصد بها طريقة معينة فى البحث العلمى لمادة من المواد .

ولفظة المنهج وحدها تعني الطريق أو السبيل، ويحدد المراد منها ماتضاف إليه فإذا قلنا : المنهج الإسلامى فى دراسة التاريخ، دل ذلك على الأسس والمبادىء والتصورات التى يضعها الإسلام لتكون حدوداً ومنطلقات عامة تحكم دراسة التاريخ وتفسيره، وفقاً لتلك المبادىء المنبثقة عن الإطار الإسلامى، وهو ماصطلح على تسميته فى النتاج الفكرى الإسلامى بـ "التفسير الإسلامى للتاريخ" ومايرتبط بهذه القضية من محاور تهدف فى نهاية الأمر إلى إبراز حقيقة الموقف الإسلامى من التاريخ كمفهوم ورؤية من خلال حقائق الوحى المنزل وتفصيلات السنة الكريمة .

أما إذا قلنا منهج البحث التاريخى، أو منهج إثبات الحقائق التاريخية، فإنه يعنى القواعد والطرق التي اصطلع على وضعها العلماء بغرض الإعانة على الوصول إلى حقيقة أحداث ووقائع التاريخ، والتأكد من حقيقة مسارها وحركتها، فيصبح المنهج بهذا

المعنى الآخير أداة بحث يمكن استخدامها - إلى حد ما - من قبل مجموعة من الباحثين والمؤرخين والمفكرين، وإن اختلفت مناهج حياتهم وعقائدهم وتصوراتهم.(١)

وتكشف دراسة العطاء الإسلامى فى مجال الفكر التاريخى، عن العلاقة بين علم التاريخ ومناهج البحث فيه، أنها علاقة جدلية، فبقدر مساهمة المناهج فى بناء العلم بقدر ماكان التطور المعرفى يساعد على تطوير مناهج البحث وطرق البحث وأساليبه، وكانت تلك قمة تطور الدراسات التاريخية فى تراث الثقافة العربية والإسلامية.(٢)

التاريخ لغة : يقول السخاوى "التاريخ فى اللغة الإعلام بالوقت، يقال أرخت الكتاب وورخته، أىْ "بينت وقت كتابته" مستشهداً بالجوهرى.(٣) فى قوله التاريخ تعريف الوقت، والتوريخ مثله، يقال أرخت وورخت، وقيل اشتقاق من الأرخ يعنى - بفتح

---

(١) انظر : محمد بن صامل السلمى : منهج كتابة التاريخ الإسلامى : القاهرة - دار الوفاء : ط١ ١٤١٨ هـ - ١٩٨٨م : ص٨٤ ومابعدها .

(٢) د . قاسم عده قاسم : تطور مناهج البحث فى الدراسات التاريخية : ص١٩٦ .

(٣) فى كتابه "الصحاح" وهو مجلدان، والجوهرى هو إسماعيل بن حماد الجوهرى (.. - ٣٩٣ هـ - ..... ١٠٠٣ م) لغوى من الأئمة ، له كتاب فى العروض ومقدمة فى "النحو" يتيمة الدهر ٤ : ٢٨٩ ومعجم الأدباء ٢ : ٢٦٩ .

الهمزة وكسرها - وهو صغار الأنثى من بقر الوحش، لأنه شيء حدث كما يحدث الولد".[1]

وقيل إنه ليس بعربي محصن، بل هو معرب مأخوذ من ماه روز بالفارسية، ماه القمر، وروز اليوم، وكان الليل والنهار طرفه.[2]

ثم يستشهد بقول "الصولي"[3] تاريخ كل شيء غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه، ومنه قيل لفلان تاريخ قومه، إما لكون المنتهي إليه المنتهي في شرف قومه.[4]

والذين اعتمدوا على أن كلمة "تاريخ" مأخوذة من "ماه روز" بالفارسية" فهو احتمال بعيد خلطت فيه المناسبة التاريخية بالحقيقة اللغوية.[5]

---

(١) لسان العرب : مادة تاريخ : جـ٣. والإعلان للسخاوي : ص٣٨٢ من ط . روزنتال.

(٢) الإعلان بالتوبيخ : ص٢٨٣ .

(٣) وذلك في كتابه "أدب الكتاب" والصولي هو : محمد بن يحيى بن عبد الله أبو بكر الصولي (... - ٣٣٥ هـ = ... ٩٤٦م) من كبار علماء الأدب ومن كتبه "أخبار الحلاج" و "شرح ديوان أبي تمام" . ينظر تاريخ بغداد ٣ : ٤٢٧ ونزهة الألبا ٣٤٣ ولسان الميزان ٥ : ٤٢٧ .

(٤) الإعلان : ص٣٨٤ .

(٥) د . عفت الشرقاوي : فلسفة الحضارة الإسلامية : ص٣١٩ .

ذلك أن الذين رجحوا هذا التأويل - ومنهم السخاوى - قد اعتمدوا على رواية فى نشأة التقويم الإسلامى تقول إن سبب وضع التاريخ الهجرى "أن أبا موس الأشعرى كتب إلى عمر رضى الله تعالى عنه يقول : أنا قد قرأنا صكاً من الكتب التى تأتينا من قبل أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه، وكان محله شعبان فما تدرى أى الشعبانين هو : الماضى أو الآتى؟ فجمع أعيان الصحابة واستشارهم فيما تضبط به الأوقات، وكان فيهم ملك أهواز اسمه الهرمزان، وقد أسلم على يده حين أسر، فقال له: إن لنا حساباً نسميه "ماه روز" أى حساب الشهور والأعوام، وشرح كيفية استعماله، فأمر عمر بوضع التاريخ، فاستقر رأيهم على تعيين يوم من أيامه عليه الصلاة والسلام لذلك، فجعل مبدأ الهجرة من مكة إلى المدينة إذ بها ظهرت دولة الإسلام"[١] .

وإذا صحت هذه الرواية فى تحليل نشأة التقويم الهجرى عند المسلمين، فلا يقتضى ذلك بالضرورة علاقة لغوية متكلفة وغير واضحة بين "ماه روز" الفارسية و "مؤرخ العربيتين". [٢]

(١) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفانون : ط وزارة الثقافة - جـ١ سنة ١٩٦٧ ص٨٣ والإعلان للسخاوى ص٥٠٨ .

(٢) فلسفة الحضارة الإسلامية : ص٣١٩ .

ثم يرى السخاوى أن أصل الكلمة مأخوذ من اللغة العربية، اعتماداً على البداءة بالهجرة، فقد كانت القضايا التى اتفقت له ويمكن أن يؤرخ بها أربع : مولده، ومبعثه وهجرته، ووفاته، فرجح عندهم جعلها من الهجرة، لأن المولد والمبعث لايخلو واحد منهما من النزاع فى تعيين سنته، وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه، لما يوقع تذكره من الأسف عليه، فانحصر فى الهجرة.[1]

كما يعتمد على قولة سعد بن أبى وقاص لعمر رضى الله عنه "أرخ بوفاة النبى ﷺ ، فقال على بل أرخ بهجرة النبى عليه السلام، فإنها فقرت بين الحق والباطل، وأظهرت الإسلام، فاجتمع رأى المسلمين على الابتداء بسنة الهجرة، إذ هى السنة التى غز فيها الإسلام وأهله"[2] .

التعريف الاصطلاحى للتاريخ عند السخاوى :

يقول السخاوى "التاريخ فى الإصطلاح التعريف بالوقت الذى تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وماأشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم فى ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق بـه

---

(١) الإعلان بالتوبيخ : ص٥٠٨ .

(٢) الإعلان بالتوبيخ : ص٥١١ .

مايتفق من الحوادث والوقائع الجلية، من ظهور ملمة، وتجديد فرض وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه، وانتقال دولة، وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية، وأحوال القيامة، ومقدماتها مما سيأتي، أو دونها كبناء جامع، أو مدرسة أو قنطرة، أو رصف أو نحوها، مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد، أو خفى سماوى كجراد وكسوف وخسوف، أو أرضى كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون وموتان وغيرهما من الآيات العظام والعجائب الجسام.. والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم"[1] .

لقد حاول السخاوى فى تعريفه الإصطلاحى السابق إبراز شمولية الرؤية التاريخية لأهم الأحداث والوقائع التى تشتمل عليها الحياة الإنسانية، وهو يشبه إلى حد كبير التعريف الذى أورده ابن خلدون فى مقدمته، ولكن أهم مافى تعريف السخاوى ربط لتاريخ بالزمان، والحقيقة أن هناك علاقة على التحقيق، بين الإنسان والزمان تظل مضمرة يدركها الناس بالحدس، ويقرون بوجودها من غير أن يفكروا فيها لأن الزمن مفهوم إنسانى كغيره من المفاهيم التى تقع فى دائرة الحس، وإن عمر بها كل وجدان، والتاريخ فى صيغته الشاملة

(١) الإعلان للسخاوى : ص٣٨٥ .

- تعريفاً وموضوعاً - إنما هو قصة هاتيك العلاقة بين الإنسان الواعى (ذى البصر، ذى اللب، قرآنياً) والزمان.[1]

وإذا كان الإنسان والزمان موضوع التاريخ، كما بين السخاوى، فهل يعد أشمل من الزمان وأشمل من الإنسان؟ وكيف لأمرىء أن يحيط بالزمان ويعرف عوالم الإنسان؟ ورجعة إلى تراثنا الفكرى الإسلامى فى هذا الميدان، نجد أن أول من التفت إلى ربط التاريخ بالزمان هو "أحمد المرزوقى" المفكر اللغوى والعالم الرياضى، الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع للهجرة، وحتى النصف الأول من القرن الخامس حيث وضع كتاب "الأزمنة والأمكنة" قاصداً إلى إبراز العلاقة ين الزمان والمكان دون أن يجعلهما شيئاً واحداً .

ونجد الإمام فخر الدين الرازى، الذى جاء بعد المرزوقى بنحو من قرنين يقرر فكرة الترابط بين المكان والزمان، ويجلوها أحسن جلوة، فى تفسيره الشهير "مفاتيح الغيب" .

وجاء بعد فخر الدين الرازى بثلاثة قرون، ومأأناف عليها، فقيـه من المغرب هذه المـرة فأفـاد من تطور العلـوم فـى حضارتـه

---

(١) انظر : الفكر التاريخى فى الإسلام : لعبد اللطيف شرارة : بيروت : دار الأندلس : ط٢ : ١٩٨٣ : ص٤٨ .

الإسلامية، واتساع المباحث والدراسات الفلكية وهو "أبو إسحاق إبراهيم المعروف بابن الأجدابي" الذى وضع كتاب "الأزمنة والأنواء"، ومنه يتضح بجلاء خلاصة ماكان شائعاً لدى الذهنية العربية المسلمة من ارتباط الأزمنة بالنجوم، وعلاقة هذه بأحوال المناخ .

وبهذه الوقفة التي أبرزها السخاوى وغيره من المفكرين المسلمين، يتأكد لدينا أن الفكر الإسلامى اهتم بالعديد من المشكلات والقضايا ذات الطابع الفلسفي، خاصة فيما يتعلق بمشكلة الزمان والمكان والمناخ، وعلاقة كل ذلك بحركة التاريخ وواقع الأحداث، وتبرز لنا هذه الوقفات شمولية العقل المسلم فى ميدان التنظير للمسألة التاريخية وحقيقة التاريخ، بوصفه عملية إنسانية تتداخل فيها وتتكامل كافة العوامل التى تبرز مسار الحركة الحضارية لمجتمع ما، أخذاً بالأسباب، وفحصاً للوقائع، ورصداً دقيقاً للأحداث، ثم تمحيص النتائج فى نهاية الأمر بعد معاناة منهجية لاتخفى دلالاتها ومراميها .

وقد ساعد على هذا التنامى المنهجى فى ميدان الفكر التاريخى، التوجيهات القرآنية فى هذا الميدان، والتى تدرج فى إطار المبادىء والقواعد الواجب الأخذ بها لبيان صحة الحقائق العلمية ورصد الوقائع التاريخية وفق قدر من الواقعية والصدق من أجل تحقيق القيمة المبتغاة من التاريخ ومسائله .

وقد أكد القرآن الكريم على هذه الروح الموضوعية فى العديد من المواضع، والتى تؤكد على أن الإسلام حين يدعو إلى المعرفة، فإنه يعتمد على الآية الاستدلالية التى تعتمد على إعمال الفكر وشحذ الذهن البشرى، ولذلك حمل القرآن على المقلدين الذين يعطلون عقولهم ولايستعملونها : "إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون" . الأنفال / ٢٢ ويقول تعالى "ولاتقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً" الإسراء / ٣٦ واستنكر : "مالهم به من علم إلا اتباع الظن" النساء / ١٥٧ وقاوم الأهواء : "وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم" . الأنعام / ١١٩ .

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق، فلم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية فى عالم البحوث والتجارب والعلوم، ووفق هذه التوجيهات تحددت المرجعية التى انطلق منها الفكر التاريخى فى تراثنا الإسلامى، وحقق مايبرز بجلاء طرفاً من الخصوصية الفكرية التى تبرز ذاتية الأمة فى ميدان البحث التاريخى .

فائدة علم التاريخ : عودة لبيان ارتباط المستقبل بالماضى عن طريق الحاضر ارتباطاً معنوياً فى الوعى بالذات الحضارية، ولذلك اتجه النشاط الإنسانى إلى أقرب المعارف وألزمها للإنسان، وهو علم التاريخ، ويتقدم الفكر بتفسير لحركة التاريخ، والقيام بمحاولات التنبؤ بالمستقبل عن طريق الدراسة الموضوعية للماضى التاريخى، وفق منهجية واعية، وبذلك تتم الفائدة من دراسة التاريخ والتعرف على وقائعه وأحداثه من أجل فعالية الحاضر انطلاقاً إلى المستقبل .

ويتجلى هذا المعنى بوضوح من خلال عبارة السخاوى الموحية فى حديثه عن فوائد التاريخ حين يقول "وأما فائدته فمعرفة الأمور على وجهها". (١)

معنى هذا التعرف على الوقائع والحقائق كما هى دون تحيز أو هوى فى نفس المؤرخ وكل من يحاول التعرف على الأحداث فى مكان وزمان معينين، ولعل ذلك من الأوليات المنهجية الواجب اتباعها فى فهم الواقعة التاريخية .

---

(١) الإعلان : ص٣٨٥ .

وعن طريق التاريخ يمكن معرفة الحقيقى رغم التعارض فيقول "ومن أجل فوائده أنه أحد الطرق التى يعلم بها النسخ فى أحد الخبرين المتعارضين المتعذر الجمع بينهما"[1] .

ويستشهد بقول سفيان الثورى[2] "لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ" وعن حسان بن زيد قال "لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ"[3] .

ومن فوائده أيضاً "مايذكر فيه من أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم وسنتهم فهو مع أخبار العلماء ومذاهبهم والحكماء وكلامهم، والزهاد والنساك ومواعظهم عظيم الغناء ظاهر المنفعة، فما يصلح الإنسان به أمر معاده ودينه وسريرته فى اعتقاداته، وسيرته فى أمور الدين، معاً يصلح به أمر معاملاته ومعاشه الدنيوى.. وكذا مايذكر فيه من أخبار الملوك وسياساتهم، وأسباب مبادىء الدول وإقبالها، ثم سبب انقراضها"[4] .

---

(١) نفسه : ص٣٨٥ .

(٢) من كبار علماء الحديث ت ١٦٢ هـ من كتبه "الجامع الصغير" و "فى الفرائض" انظر: حلية الأولياء ٣٥٦/٦ وابن خلكان ٢١٠/١ وتاريخ بغداد ١٥١/٩ .

(٣) الإعلان : ص٣٩٠ .

(٤) الإعلان : ص٤٠٠ .

ولعل السخاوى يشير هنا إلى ماعرف عند مفكرى وفلاسفة التاريخ والحضارة بمبحث "الدورة الحضارية" والتى يتم من خلالها التعرف على أسباب ومقومات الصعود الحضارى وكذلك عوامل إضمحلال وتحلل الكيانات الحضارية المختلفة، وذلك من خلال رصد وتحليل منحنيات الصعود والإنكسار والهبوط فى حركة التاريخ لمجتمع ما خلال دورته الحضارية، وقد خضعت هذه النظرية للكثير من الاجتهادات الفكرية والفلسفية فى تاريخ الفكر البشرى، وكان على رأس هؤلاء المفكر الإسلامى عبد الرحمن ابن خلدون فى مقدمته، وفى العصور الوسطى الأب "جان باتيست فيكو"، وفى العصر الحديث "أزوالد شبنجلر" و "آرنولد توينبى" و "بيتريم سورتين" وفى الفكر الإسلامى المعاصر يقف المفكر الإسلامى الجزائرى "مالك بن بنى" كامتداد واضح لفقه التاريخ والحضارة الذى تبلور من خلال الاتجاه الخلدونى فى فكرنا المعاصر. ويضيف السخاوى حول فوائد التاريخ "مايذكر فيه من تدبير أصحاب الجيوش والوزراء ومايتصل بذلك من الأحوال التى يتكرر مثلها وأشباهها أبداً فى المعالم، غزير النفـع كثيـر الفائـدة، بحيـث يكون من عرفـه، كمن عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها، وباشر تلك الأحوال بنفسه التى يتكرر مثلها واشباهها أبداً فى العالم، غزير النفع كثير الفائدة، بحيث يكون من عرفه، كمن عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها، وباشر تلك الأحوال بنفسه، فيغزر عقله، ويصير مجرباً غير غر ولاغمر"[1] .

---

(١) الإعلان : ص٤٠٠ .

ومن خلال التعرف على التاريخ ندرك القيمة الحقيقية للكثير من الشخصيات التى تتخذ كمثلٍ للإقتداء والحزو فيقول السخاوى" ونحو هذا مايقع فيه من ذكر ذوى المروآت والأجواد والمتصفين بالوفاء ومحاسن الأخلاق والمعروفين بالشجاعة والفروسية، وأنه أيضاً جم الفوائد كثير النفع لذوى الهمم العالية والقرائح الصافية، كما جبل عليه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والإقتداء بأربابها، ليصير لهم نصيب من حسن الثناء وطيب الذكر الذى حرص عليه الصلاة والسلام أنه قال : "واجعل لى لسان صدق فى الآخرين" الشعراء /٨٤ وامتن تعالى على غير واحد من رسله عليهم الصلاة والسلام بقوله "وتركنا عليهم فى الآخرين" . الصافات / ٧٨ وعلى خيرته من خلقه عليه أفضل الصلاة والسلام بقوله : "ورفعنا لك ذكرك" الشرح/ وقوله تعالى : "وإنه لذكر لك ولقومك" الزخرف / ٤٤ .(١)

وعن فوائد التاريخ من خلال القرآن الكريم يذكر السخاوى رواية ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ذكر الله التاريخ فى كتابه، لأن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : يارسـول اللـه مابال

---

(١) نفسه : ص٤٠٢ .

الهلال يبدو دقيقاً مثل الخط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير، ثم لايزال ينقص ويدق، حتى يعود كما كان على حاله الأول، فنزل قوله تعالى "يسئلونك عن الأهلة وهى جمع هلال "قل هى مواقيت للناس" البقرة / ١٨٩ أى فى دينهم وصومهم وفطرهم، وعدة نسائهم ومدد حواملهم ومحل ديونهم وأجور إجرائهم، وغير ذلك من الشروط إلى أن ينتهى إلى أجل معلوم حكمة بالغة ونعم ظاهرة."(١)

ثم يشير السخاوى إلى الأهمية الكبيرة والمكانة العظيمة التى أولاها الوحى المنزل لتاريخ الأمم الغابرة وتاريخ المجتمعات المختلفة، والتى شملت مساحة كبيرة من نصوص القرآن الكريم فيقول "وقص الله تعالى فى كتابه المبين، كثيراً من أخبار الأمم الماضية، كقوم نوح وهود ومدين وثمود، وماحكاه عن موسى وهرون وفرعون وقارون، وعن أصحاب الكهف والرقيم، وعن النمرود وإبراهيم، وقال تعالى وهو أصدق القائلين : "وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين" هود / ١٢٠ . وكفى بهذا دليلاً على جلالة علم التاريخ وفضله وفخامة قدر صاحبه ونبله"(٢) .

---

(١) الإعلان : ص٤٠٢ .

(٢) الإعلان : ص٤٠٤ .

حكم التاريخ :

يرى السخاوى أن حكم التاريخ ليس بمطرد فى واحد، بل منه ماهو واجب، إذا تعين طريقاً للوقوف على إتصال الخبر (من سلسلة الرواة) وشبهه، ولمعرفة النسخ، وللانساب التى ينشأ عنها التوارث والكفاءة، ومن ثم صرح بعضهم بأن عليه مدار الأحكام، وغير واحد أنه من فروض الكفايات، وبعضهم أنه مما ينبغى، ولكنها غير متمحضة الوجوب، بل يتدرج تحتها المستحب بحسب المقام والسياق، وربما يستعمل فى المباح .

وذكر العز بن عبد السلام (عبد العزيز بن عبد السلام ت ٦٦٠هـ) فى قواعده من أمثلة البدع الواجبة الكلام فى الجرح والتعديل ليتميز الصحيح من السقيم (فى الحديث) .[١]

والجرح والتعديل - كعلم يستشهد به السخاوى فى منهجه التاريخى - علم أصيل من العلوم الإسلامية، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم الحديث، حيث نشأ وأسس علم التاريخ فى الحضارة الإسلامية، والجرح والتعديل علم يبحث فيه عن جرح الرواة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة، وعن مراتب تلك الألفاظ، وهذا العلم فرع من فروع علم رجالات الحديث، والكلام فى الرجال جرحاً وتعديلاً، ثابت عن رسول

---

(١) الإعلان : ص٤٥٤ - ٤٥٥ .

الله ﷺ، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين ممن بعدهم، وجوز ذلك تورعاً وصوناً للشريعة، لاطعناً فى الناس، وكما جاز الجرح فى الشهود جاز فى الرواة، والتثبت فى أمر الدين، أولى من التثبت فى الحقوق والأموال، فلهذا افترضوا على أنفسهم الكلام فى ذلك .

وليس نقد الرواة بالأمر الهين، فإن الناقد لابد أن يكون واسع الاطلاع على الأخبار المروية، عارفاً بأحوال الرواة السابقين وطرق الرواية، خبيراً بعوائد الرواه ومقاصدهم وأغراضهم، وبالأسباب الداعية إلى التساهل والكذب، والموقعة فى الخطأ والغلط، ثم يحتاج إلى أن يعرف أحوال الراوى متى ولد ؟ وبأى بلد ؟ وكيف فى الدين (الأمانة والعقل والمروءة والتحفظ) ومتى شرع فى الطلب ؟ ومتى سمع ؟ وكيف سمع ؟ ومع من سمع ؟ وكيف كتابه ؟ ثم يعرف أحوال الشيوخ الذين يحدث عنهم وبلدانهم ووفياتهم وأوقات تحديثهم وعاداتهم فى التحديث، ثم يعرف مرويات الناس عنهم، ويكون مع ذلك متيقظاً مرهف الفهم، دقيق الفطنة مالكاً لنفسه، لايستميله الهوى، ولايستفزه الغضب، ولايستخفه بادر ظن حتى يستو في النظر، ويبلغ المقر، ثم يحسن التطبيق فى حكمه، فلا يجاوز ولايقصر، وهذه المرتبة بعيدة المرام عزيزة المنال، لم يبلغها إلا الأفذاذ (١) .

---

(١) كتاب الجرح والتعديل للإمام الحافظ الرازى : ط١ جـ١ - حيدر آباد : الهند ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م - المقدمة (ب) وهو الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبى محمد بن المنذر التميمى الحنظلى الرازى (ت ٣٢٧ هـ) .

فالخبر المقرون بسنده من أهم دلائل الضبط فى الرواية، وصدق المخبر أو كذبه يكشف في كثير من الأحيان عن حقيقة الخبر سواء أكان ذلك فى الحديث أم التاريخ.[1]

والأصل فى هذا الرجوع إلى أئمة النقل وعلمائه من أهل الجرح والتعديل، وإلى العلماء الثقات المأمونين فى دينهم وعقيدتهم، بحكم تخصصهم فى ذلك، ودقة معرفتهم به، ويكفى لمعرفة دقة المنهج العلمى الذى اتبعه العلماء المسلمون وتكامله، الاطلاع على عناوين الأبواب التى أوردها الخطيب البغدادى فى كتاب "الكفاية فى علم الرواية" وقد استشهد به السخاوى فى الإعلان فى هذا الإطار، ومباحث علم الإسناد على تنوعها وتعددها، تهدف كلها إلى توثيق النص ونقده وبيان مايقبل ومايرد من الروايات، لأنه إذا بطل السند واكتشف كذبه فإن ذلك يبطل النص المنقول بهذا السند، فعلم الإسناد بكل مسائله وأنواعه وعلله يهدف إلى تصحيح النصوص ومحاربة الوضع والكذب فيها، وتسمى هذه المباحث بعلم "الرواية" .[2]

---

(١) د . أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ : مرجع سابق : ص٣٤٢ وقد عقد فى هذا الكتاب مقارنة هامة بين منهج علم الحديث وعلم التاريخ ص٣٠٢ ومابعدها.

(٢) منهج كتابة التاريخ الإسلامى : ص١٤٠ - ١٤١ .

ولذلك كان من البديهى أن يتعرض السخاوى - وهو مؤرخ مسلم - إلى المعايير التى تضبط الحكم التاريخى اعتماداً على مصطلحات علم الحديث، حيث شكل هذا العلم المتبع انطلق منه علم التاريخ الإسلامى، ولعل ذلك يدفعنا إلى التساؤل - مع السخاوى- عن أهم الشروط الواجب توافرها فى المؤرخ، حيث عقد لذلك فصلاً فى الإعلان، بعد حديثه عن حكم التاريخ، وذلك للصلة الوثيقة بين حكم التاريخ والشروط التى ينبغى توافرها فى من يناط به هذا الحكم ويقرره .

شروط المؤرخ : أول الشروط التى وقف عندها السخاوى هى "العدالة" ، لأنه بغياب العدل تسقط منهجية علم التاريخ منذ البداية، لأن هذه الآفة الخلقية هى المسئولة عن كثير من التزييف والتدليس الذى اعترى الكتابات المختلفة حول تسجيل التاريخ الإنسان بكل وقائعه وأحداثه، ولانستثنى من ذلك العطاء الإسلامى فى مجال التاريخ، لارتباط هذا العلم بمن يتصدى له ويدونه، وتتوقف قيمة المـؤرخ - سلباً وإيجاباً - بمدى التزامه بالقيم الدينية والخلقية الواجب توافرها فى الشخصية المسلمة - بصفة عامة - بجانب ضرورة توافر الشروط الخاصة بمنهج الكتابة التاريخية والتصدى لتحليل قضية التاريخ تسجيلاً وتحليلاً وتنظيراً .

يقول السخاوى وأما شرط المعتنى به - أى التاريخ - العدالة مع الضبط التام الناشىء عنه مزيد الإتقان والتحرى ، لاسيما فيما يراه فى كلام كثير من جهلة المعتنين بسير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام". (١)

ثم يشير إلى خطورة التعرض للأخبار المتعلقة بالكتب القديمة، والخاصة فى المراحل التى سبقت التاريخ الإسلامى، وذلك لغياب الأسانيد العلمية التى تمكن المؤرخ من صياغة تسجيله للحوادث بقدر من الموضوعية والحقيقة، وهو يحاول أن يوجد النصح للمؤرخ المسلم، بألا يعتمد على صحة الواقعة إلا بما يتصل بسنده إلى أقوال الرسول ﷺ وسنته الكريمة .

فيقول وينبغى التحرز فيما يكتب من أخبار الأوائل والكتب القديمة، ومايكون من الحوادث والملاحم، لتردد الأمر فيها بين تجويز الإبطال أو الحزم، بل ليس يصح فى ذكر الملاحم المرتقبة، والفتن المسطرة، إلا اليسيرة مما تصل بنا أسانيده إلى الرسول ﷺ . (٢)

---

(١) الإعلان : ص٤٨٢ .

(٢) الإعلان : ص٤٨٢ والحقيقة أن علم التاريخ قد تطور تطوراً كبيراً فى العصور التى تلت عصر السخاوى وحتى الوقت الحالى، حيث إن العقل الإنسانى قد حقق تقدماً كبيراً حول موضوعية الأدوات والأساليب المستخدمة فى الكشف عن حقائق التاريخ والتأكد من صحتها نذكر منها الدراسة المقارنة للحضارات، والتاريخ المقارن وتطور العديد من العلوم المساعدة للتاريخ كالأنثروبولوجى ، والآثار والأساطير والاجتماع وغير ذلك، مما يدفع العقل المسلم إلى ضرورة التعرف على أخبار الأمم والشعوب فيما قبل الرسالة الإسلامية، وذلك بنص القرآن الكريم .

وهو يستشهد فى ذلك بحديث الرسول ﷺ "حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله" [1] ومامن رجل يحدث قوماً بحديث لاتبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة" [2] .

ويرجع إلى رأى ابن عبد البر حين يقول "إن للخوف من عدم التقيد بأكثر مما يقدم رأى ابن عبد البر أن أهل العلم لايقبل الجرح فيهم إلا ببيان واضح وهو واضح" [3] .

ويؤكد السخاوى على هذا المعنى بالرجوع إلى قول الرسول ﷺ "إن الرجل ليتكلم بالكلمة مايلقى لها بالاً يهوى بها فى نار جهنم سبعين خريفاً". [4]

كذلك من شروط المؤرخ أن يكون عالماً بطريق النقل، حتى لايجزم إلا بما يتحققه، فإن لم يحصل له مستند معتمد فى الرواية، لم يجز له النقل لقوله ﷺ "كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل

---

(١) انظر : الإحياء للغزالى : جـ١ ص٣٢ ومابعدها .

(٢) الإعلان : ص٤٨٤ .

(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم : ص١٥٢ : جـ٢ .

(٤) رواه البخارى : جـ٤ ص٢٢٥ .

ماسمع"[1] وليكون بذلك محترزاً عن وقوع المجازفة والبهتان والإفتتات والعدوان، وهو لايشعر ولايبصر، وينفر عن تاريخه العقلاء والعلماء والنبلاء والحكماء ولايرغب فيه إلا من هو مثله أو أفحش". [2]

وعن موقف المؤرخ من أخلاقيات من يؤرخ لهم يجب "أن يكون عارفاً بمقادير الناس وبأحوالهم وبمنازلهم، فلا يرفع الوضيع، ولايضيع الرفيع، ليكون ممتثلاً لقوله ﷺ "أنزلوا الناس منازلهم"[3] يعنى عن الخير والشر، وبالجملة فالشرط مع العدالة والضبط، والتمييز بين المقبول والمردود، مما يصل إليه من ذلك، وبين الرفيع والوضيع، وعدم العداوة الدنيوية، والمحاباة المفضية إلى العصبية، المعبر بعضهم عنه بتجنب الغرض والهوى والفهم، بحيث لايكون جاهلاً بمراتب العلوم، سيما الفروع والأصول، ويفهم الألفاظ ومواقعها، خوفاً من إطلاق ألفاظ لاتليق بالمترجمين، فيحصل التعرض له بالتنقيض والتعزير الذى يشين. [4]

---

(١) رواه مسلم : جـ١ : ص٩٧ .

(٢) الإعلان : ص٤٩٤ .

(٣) رواه مسلم وأبو داود عن عائشة .

(٤) الإعلان : ص٤٩٥ .

كذلك "ويحتاج للمؤرخ مصاحبة الورع والتقوى، بحيث لايأخذ بالتوهم والقرائن التى تختلف خوفاً من الدخول تحت قوله ﷺ "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"[1] ومتى لم يكن ورعاً مع كونه معروفاً بالعلم، اشتد بالبلاء به، بخلاف العكس فالورع والتقي يخجزه ويوجب له الفحص والاجتهاد وترك المجازفة.[2]

وأخيراً يختتم السخاوى حديثه عن شروط المؤرخ بما أورده "تاج الدين السبكى" فى كتابه "معيد النعم ومبيد النقم" من خلال الفصل الذى وضعه حول شروط المؤرخ فى قوله "المؤرخون على شفا جرف هار لأنهم يتسلطون على أعراض الناس، وربما نقلوا بمجرد، مايبلغهم من كاذب أو صادق، فلابد أن يكون المؤرخ عالماً، عدلاً عارفاً بحال من يترجمه، ليس بينه وبينه من الصداقة، ماقد يحمله على التعصب له ولامن الغصين من أقوام مخالفة العقيدة واعتقاد أنهم على ضلال، فيقع فيه أو يقصد فى الثناء عليهم لذلك، وكثيراً مايتفق هذا لشيخنا".[3]

---

(١) أخرجه البخارى : كتاب الوصايا : باب / ٨ والنكاح / ٤٥ .

(٢) الإعلان : ص٤٩٨ .

(٣) تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم: ص١٠٥: ط ليدن - بريل -١٩٠٨.

ذم ناقدى التاريخ : لقد وجد دوماً من يهاجم علم التاريخ، وينحو باللائمة على جهود المؤرخين، ويعدها من قبيل القصص والحكايات، الغرض منها التسلية وشغل الأسمار، بالإضافة إلى غياب القيمة العلمية لجهود المؤرخين وأعمالهم، مع إغفال تام للدور الذى يقوم به المؤرخ فى تجلية أحداث الأزمنة ووقائع الأيام، مما يساعد المرء معرفة بماضيه الحضارى، وتراثه الثقافى والسياسى والاجتماعى - وبالجملة - التعرف على مختلف وجوه الحياة الإنسانية، مما يكسبنا عمقاً فى الرؤية التى تربط بين الماضى والحاضر، تطلعاً إلى مزيد من فعالية المستقبل .

وإنسان بلا تاريخ فهو بلا حاضر لأنه عدم الربط المعنوى والأخلاقى لحركة الإنسان فى الزمان - الذى لاتنفصل آناته الثلاثة عن بعضها أبداً - حيث ترتبط فى إطار تكاملى ووحدة عضوية، يستحيل تصور المسار التاريخى للإنسان فى غيابها .

يقول السخاوى "وأما الذامون للتاريخ، فمنهم من يدعى المعرفة والرزانة، ويظن بنفسه التبحر فى العلم والأمانة، يعمد فيحقر التواريخ ويزور بها، ويعرض عنها ويلغيها لظنه أن غاية فائدتها، إنما هو القصص والأخبار، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار، ومنهم من نسب بعضهم إلى التقصير والتعصب، حيث لم يستوعب القول فيمن هو منحرف عنهم، بل يحذف كثيراً مما يراه من

ثناء الناس عليهم، ويستوفى الكلام فيمن عداهم غير مقتصر عليهم، ومنهم من الحامل له على الذم مجرد الجهل، الذى اقتصر على القشر دون اللب، واختصر فلم ينظر مافيها من الجواهر لما عنده من التعصب، ومن رزق الله تعالى طبعاً سليماً وهداه صراطاً مستقيماً علم أن فوائده كثيرة، ومنافعه الدنيوية والأخروية جمة غزيرة"[١] .

وقد وصل ضيق الأفق ببعض ناقدى التاريخ، اعتبار التعرض لأحداث التاريخ ووقائعه خوض فى أعراض الناس، مما يدخل فى إطار الغيبة التى نهى الإسلام عنها، فترى السخاوى يستشهد بعلماء الأصول وبالأحاديث النبوية فى رد هذا الاتهام، فيروى عن الإمام أحمد رضى الله عنه، لأحد المحدثين الذين عز لهم عن الجرح بقوله "لاتعتب" الناس ويحك، هذه نصيحة وليست غيبة، قال تعالى "وقال الحق من ربكم" الكهف / ٢٩ وأوجب اله الكشف والتبيين عند خبر الفاسق بقوله "إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا" الحجرات / ٦ وقال النبى ﷺ "بئس أخو العشيرة"[٢] وفى التعديل "أن عبد الله رجل صالح"[٣] إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة فى الطرفين[٤] .

---

(١) الإعلان : ص٤٥٩ - ٤٦٠ .

(٢) البخارى : كتاب الأدب : باب / ٣٨ ، ٤٨ وأبو داود : كتاب الأدب : باب / ٥ .

(٣) الحديث السابق .

(٤) الإعلان : ص٤٦٢ .

ويؤكد السخاوى على ضرورة التعرض للأشخاص، وذلك لأن الفعل التاريخى يناط بسيرتهم وحياتهم وهذه مهمة رجل التاريخ فيقول "إن النقلة هم الواسطة بيننا وبين التاريخ، فوجب البحث عنهم، والفحص عن أحوالهم، وهذا أمر مجمع عليه، والعلم التكفل بذلك هو علم التاريخ، ولهذا قيل أنه من فروض الكفاية"(١) .

وليس معنى دفاع السخاوى عن المؤرخين أنه ينزه جهودهم عن الأخطاء والسقطات فيقول "وبالجملة فالمؤرخون كغيرهم من سائر المصنفين فى كلامهم الخمير والعفين والسعيد من عدت غلطاته وماشتدت سقطاته"(٢) .

وظهور التدهور الأخلاقى، وغياب القيم هو الذي يدفعنا إلى التأكيد على أهمية علم التاريخ لأنه يكشف لنا جذور هذا التحلل القيمى والخلقى مما يدفعنا إلى دفع الشر بالتعرف على أسبابه فيقول "لقد ظهر الكثير عن الخلل وانتشر من المناكير، مااشتمل على أقبح العلل، حيث انتدب لهذا الفن الشريف من اشتمل على التحريف والتصحيف، لعدم إتقانهم شروط الرواية والنقل وائتمانهم من لايوصف بأمانة ولاعقل، بل صاروا يكتبون السمين مع الهزيل، والمكين مع المزلزل العليل"(٣) .

---

(١) الإعلان : ص٤٦٧ .

(٢) الإعلان : ص٤٧٩ .

(٣) الإعلان : ص٤٨٠ .

الأساس العقائدى وصياغة المؤرخ :

لاشك أن النظرة إلى التاريخ هى بأعماقها حصيلة الجهد الإنسانى فى حقبة زمنية ما، ونافذة للنظر الفكرى، مطلة من الزاوية التى يتخذها الدارس للإطلال على العالم الماضى والحاضر معاً .

ومن خلال المنهج الذى يحدد به المؤرخ رؤيته للتاريخ معللاً أحداثه، وباحثاً عن العوامل والأسباب التى تساهم فى صياغة الحدث التاريخى، فإن هذا المنهج وإن كان موضوعه المباشر الحدث الماضى - فإنه يساهم - فى نفس الوقت فى صياغة الحاضر وحركيته انطلاقاً إلى مستقبل يؤكد الاستمرارية الحضارية لهذا المجتمع الذى تشكل أرضيته الخلفية الحضارية لمنهج المؤرخ .

والمتأمل للمناهج المختلفة فى دراسة التاريخ، يرى أنها تنطلق عن أصول عقائدية تشكل انتماء المؤرخ وتوجهاته فى صياغة منهجه حول التاريخ، وبهذا الربط بين العقيدة التى ينتمى إليها المؤرخ، وبين صياغاته المنهجية، يمكن استيعاب الأهداف التى يسعى إليها هذا المؤرخ أو ذاك، ومن ذلك نستنتج أن منهج التاريخ لم ينفصل عن المنهج الفكرى العام فى إطار ثقافة معينة، وجميع الإسهامات المنهجية التى قدمت فى المجال التاريخى، كانت تصاغ فى إطار الذاتية العقائدية لهذا المجتمع أو ذاك، ويؤكد ذلك على أن كل منهج لفهم آليات وقائع التاريخ وأحداثه - هو ابن بيئته وربيب

زمانه، ولايمكن صياغة منهج - أياً كان - يغفل الواقع التاريخى والبيئى بكل تداعياته، وتغيراته المختلفة سياسية وإقتصادية واجتماعية وثقافية، وذلك فى إطار الانتماء الحضارى للمؤرخ .

وهكذا تكون نقطة البدء فى دراسة المجتمع هى الفكرة العامة التى تجمعه، وتوحد أمانية ودوافعه، فهى التى توجد له اليقين الذى يهب الفكرة شرعيتها، والتاريخ بأكمله - وفق هذا المنهج - يكون وحدة إذا تناولناه من ناحية تطور اليقين فى نظرة الإنسان للعالم حوله، وتجزىء التاريخ إلى حضارات ومجتمعات، إنما هو تجزيئه إلى ذاتيات أمم وتطلعات إنسانية، وفق التطور الذى يسير مصطحباً معه الأخلاق وأنماط العلاقات فى داخل المجتمع وبين المجتمع والمجتمعات الأخرى المعاصرة له والسابقة قبله، والحركة التاريخية - فى عمومها - تعتبر هكذا طاقة غفلاً، أخذت هذا الشكل أو ذاك، بعد تجمعها بدافع أو بآخر يختلف بين أمة وغيرها. (١)

لقد استخدم القرآن الكريم المادة التاريخية لتأكيد هذه الحقيقة من خلال العبرة والعظة التى شكلت الهدف الرئيسى من إيراد

---

(١) حول نماذج من الكتابات التاريخية فى الحضارات المختلفة التى اخضعت التاريخ للذاتية العقائدية ... ينظر : يوسف الحوارنى : الإنسان والحضارة : بيروت : المكتبة العصرية ط٢ : عام ١٩٧٣ : ص٢٠٠ ومابعدها .

القصص القرآنى - كما أوردنا من قبل - ولاغرو أن نظرة المسلمين إلى التاريخ لم تخل من الجانب الأخلاقى المتصل بالعقيدة فى أساسه، والحقيقة أن هذه الرؤية التربوية التعليمية للتاريخ قد فرضت نفسها على جميع المؤرخين المسلمين، وهى لهذا واردة فى مقدمات كتبهم على وجه الخصوص، وفى ثنايا رواياتهم التاريخية على السواء، ولما كانت الخلفية الثقافية للمسلمين قائمة بالضرورة على أساس من المفهوم القرآنى، فقد كان طبيعياً أن يجىء فهمهم لوظيفة التاريخ الحضارية نابعاً من هذه الخلقية، وتمثل هذا فى الجدوى والفائدة الأخلاقية - التعليمية الت رأوها فى علم التاريخ.[1]

ولعل السخاوى يمثل أوضح النماذج فى الفكر التاريخى الإسلامى التى ربطت بين العلوم الدينية الإسلامية، وبين منهجه فى كتابة التاريخ، وهو فى هذا الإطار ليس غريباً على كثير من المؤرخين الذى نهجو ذلك النهج، فقد ارتبطت الكتابة التاريخية منذ بدايتها فى صدر الإسلام بالعلوم الدينية ارتباطها وثيقاً، وقد جمع كثير من أئمة المسلمين بين الفقه والتاريخ، كالطبرى وابن كثير والحافظ الذهبى، وكان أكثر علماء المسلمين، يرون ضرورة الاشتغال

---

(١) الرؤية الحضارية للتاريخ : ص٨٥ وتجدر الإشارة إلى أن الحافظ الذهبى قد وضع عنوناً لموسوعته الكبرى فى تاريخ الإسلام أسماه "العبر فى خبر من غبر" ووضع ابن خلدون مقدمته لكتابة "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .." إلى آخر العنوان .

به لخدمة الغرض الدينى، حتى يصبح علم التاريخ على هذا النحو وسيلة لفهم الفقه والشريعة .

وفى نص بالغ الدلالة للسخاوى يقول "وبعد فعلم التاريخ من فنون الحديث النبوى وزين تقربه العيون، حيث سلك فيه المنهج القويم المستوى، بل وقعه من الدين عظيم، ونفعه متين فى الشرع، بشهرته غنى عن مزيد من البيان والتفهم، إذ به يظهر تزييف مدعى اللقا، وبيان مصادر منه من التحريف فى الارتقاء، إذ كان اختل عقله واختلط، ولم يجاوز بلدته التى لم يدخلها الطالب قط، وتحفظ به الأنساب المترتب عليها صلة الرحم، والمتسبب عنها الميراث والكفاءة حسباً قرر فى مجلد وفهم، وكذا تعلم منه آجال الحيوف، واختلاف النقود والأوقاق التى ينشأ عنها عن الاستحقاق ماهو معهود، وينتفع به فى الاطلاع على أخبار العلماء والزهاد والفضلاء والملوك والأمراء ولنبلاء وسيرهم ومآثرهم فى حربهم وسلمهم، ومأبقى الدهر من فضائلهم أو رذائلهم، بعد أن أبادهم الحدثان، وأبلى جديدهم الآوان، حيث تتبع الأمور الحسنة من آثارهم، ولا يسمع منهم فيما تنفر عنهم العقول المستحسنة من إخبارهم، ويعتبر بما في من المواعظ النافعة واللطائف المفيدة"[١] .

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذلك السلوك : ط بولاق : جـ٢ .

ويؤكد على ذلك "روزنتال" بقوله "لقد كان السخاوى قوى الاقتناع بالأهمية الكبرى لكل مايتعلق بالأحاديث النبوة الشريفة، لذلك كان يقوم فى كل لحظة بالتطرق إلى هذه الموضوعات، التى لها علاقة بمواضيع كتابه"[1] .

ومن خلال هذه المعانى التى قدمها السخاوى حول علم التاريخ نخلص إلى :

أولاً : القيمة العلمية للتاريخ كفن له أدواته ومناهجه التى تميزه عما عداه من العلوم فى تراثنا الإسلام .

ثانياً : إن أصالة علم التاريخ في تراثنا الفكرى، جلية، بحيث جاء معبراً عن خصوصية الثقافة الإسلامية فى هذا الميدان، وجاءت جهود المدرسة التاريخية - بمختلف مناهجها - كتعبير عن الذاتية العقائدية للفكر الإسلامى فى جملته، بحيث يستحيل تناول أى عطاء فى تاريخ الفكر الإسلامى، دون الاحتكام إلى حقيقة البنية الأصولية للعقل المسلم، ممثلة فى التركيب العقائدى الذى صاغ وبلور الحدث الحضارى الإسلامى في إطار الحضارات .

ثالثاً : إن ميدان البحث التاريخى فى تراثنا الفكرى، مازال فى حاجة إلى جهود متعددة لإبرازه، وتقديمه لأجيالنا المعاصرة، وذلك فى إطار التوظيف الفعال للعلامات المضيئة فى تراثنا الفكرى والحضارى .

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين : ص٣٧٤ .

مراجع البحث

١ - ابن كثير : تفسير القرآن : ط عيسى الحلى : دار إحياء الكتب العربية.

٢ - ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - بيروت : المكتب التجارى ط الأولى - بدون .

٣ - خلدون : المقدمة : القاهرة : المطبعة البهية : بدون .

٤ - ابن النديم : الفهرست ط ليبسك : ١٨٧١ م جزآن فى مجلد .

٥ - ابن حزم الأندلسى : رسائل ابن حزم الأندلسى : تحقيق د. إحسان عباس : القاهرة : مكتبة الخانجى : بدون .

٦ - أبو حامد الغزالى : إحياء علوم الدين : مصر : المطبعة التجارية .

٧ - إلبان ويدجيرى : المذاهب الكبرى فى التاريخ : بيروت : دار القلم : ط١: ترجمة : ذوقان قرقوط : ١٩٧٢ م .

٨ - أحمد محمود صبحى : دكتور : فى فلسفة التاريخ : مؤسسة الثقافة الجامعية - الإسكندرية - بدون .

١٠ - التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون : ط وزارة الثقافة : القاهرة : ط١ ١٩٦٧م .

١١ - تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم : ط ليدن - بريل : ١٩٠٨ م .

١٢ - جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام : بغداد : المجمع العلمى العراقى.

١٣ - الحافظ الرازى : الجرح والتعديل : حيدر آباد : ط١ : الهند : ١٩٥٢م.

١٤ - سيد قطب : فى ظلال القرآن : بيروت : در الشروق : ط١١ : ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م .

١٥ - سيد قطب : فى التاريخ فكرة ومنهاج : بيروت : دار الشروق : ط٣ : ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

١٦ - السيد عبد العزيز سالم : دكتور : التاريخ والمؤرخون العرب : القاهرة : دار الكاتب العربى : ١٩٦٧ م .

١٧ - السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك - ط بولاق - مصر . بدون.

١٨ - السخاوى : الضوء اللامع فى علماء القرن الاتساع: القاهرة: ١٣٥٤هـ.

١٩ - السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : ضمن كتاب روزنتال علم التاريخ عند المسلمين .

٢٠ - عفت الشرقاوى - دكتور : فلسفة الحضارة الإسلامية : بيروت : دار النهضة العربية ط٣ : ١٩٨١ م .

٢١ - عبد العزيز الدورى : دكتور : بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب : بيروت : المطبعة الكاثوليكية : ١٩٧٠ م .

٢٢ - عمر فروخ : دكتور : تاريخ الجاهلية : بيروت : دار العلم للملايين: ١٩٦٤م .

٢٣ - عبد الفتاح شرارة : الفكر التاريخى فى الإسلام : بيروت: دار الأندلس: ط٢ ١٩٨٢ م .

٢٤ - على أومليل - دكتور : الخطاب التاريخى : بيروت : معهد الإنماء العربى : بدون .

٢٥ - عبد الله العروى : العرب والفكر التاريخى : الدار البيضاء : المركز الثقافى العربى : ط٢ .

٢٦ - عماد الدين خليل - دكتور : التفسير الإسلامى للتاريخ : بيروت : دار العلم للملايين : .

٢٧ - الفارابى : إحصاء العلوم : ط٢ : ١٩٧٨ م تحقيق عثمان أمين : القاهرة : مطبعة الاعتماد ١٩٤٩م .

٢٨ - فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين : ترجمة د : صالح أحمد العلى : بغداد دار المثنى : ١٩٦٣ م .

٢٩ - قاسم عبده قاسم - دكتور : الرؤية الحضارية للتاريخ : القاهرة : دار المعارف : ط٢ : بدون .

٣٠ - الكافيجى : المختصر فى علم التاريخ : ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين - لروزنتال .

٣١ - لويس ماسينيون : محاضرات فى تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية: تحقيق د . زينب خضيرى : القاهرة : المعهد العلمى الفرنسى .

٣٢ - محمد إبراهيم الفيومى - دكتور فى الفكر الدينى الجاهلى : القاهرة : دار المعارف : ط٣ : ١٩٨٣ م .

٣٣ - مصطفى عبد الرازق : تمهيد فى تاريخ الفلسفة الإسلامية : القاهرة : النهضة المصرية : ط٣ ١٩٦٦ م .

٣٤ - محمد أبو القاسم حج حمد : العالمية الإسلامية الثانية : بيروت : دار المسيرة : ط الأولى : ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

٣٥ - محمد عبد الواحد حجازى : القرآن وفكرة التاريخ : القاهرة : دار آتون: ١٩٧٩م .

٣٦ - مالك بن بنى : وجهة العالم الإسلامى : دمشق : دار الفكر : ١٩٨١م.

٣٧ - محمد صامل السلمى : منهج كتابة التاريخ : القاهرة : دار الوفاء : ١٩٨٨م ط١ .

٣٨ - النويرى : نهاية الأرب : ط دار الكتب : ١٩٢٨ م .

٣٩ - هرنشو : علم التاريخ : ترجمة : عبد الحميد العبادى : القاهرة : لجنة التأليف : بدون .

٤٠ - يوسف الحورانى : الإنسان والحضارة : بيروت : المطبعة العصرية : ط٢: ١٩٧٣ م .

فهرس الكتاب

رقم الإيداع ٧٢١٩ / ١٩٩١

I.S.B.N 97700 - 1936 - 4

بيت الحكمة

للإعلام والنشر والتوزيع

العنوان : ١١ ش الأزهرى - منشأة النصر - شبرا الخيمة

المراسلة : مصـــر / ص . ب (١٣٤١١/٥) شبرا الخيمـــة

ت : ٢٢٠٧١٢٤ ت : ٢٢٠٣٨٩٩